خالد محمد خالد

أفكار في القمة

"إلينا يا من أتعبكم الظلام"

المقطم
للنشر والتوزيع

خالد محمد خالد

أفكار في القمة

"إلينا... يا من أتعبكم الظلام"

المقطم
للنشر والتوزيع

كل الحقوق محفوظة

Copyright
All rights reserved

المقطم للنشر والتوزيع

القاهرة-مصر
٥٠ شارع الشيخ ريحان- عابدين

Tel: (00202) 7958215
7946109
Fax: (00202) 5082233

Email:
elmokatam@hotmail.com

موضوعات الكتاب

	صفحة
مقدمـة	
١ – مع محمد . . ضد العجز ، والكذب ، والألم	١٣
٢ – مع الصين . . في حكمتها الجزيلة	٣٣
٣ – مع بوذا . . في بحثه عن الحقيقة	٤٩
٤ – مع مصر القديمة . . وهي تفكر	٥٧
٥ – مع توم بين . . صديق البشر	٦٧
٦ – مع جوركي . . صديق المستقبل	٧٩
٧ – مع اقبال . . في فلسفته الدينية	٨٩
٨ – مع فرويد . . في مجاهل النفس	١٠٧
٩ – مع ديهاميل . . في دفاعه عن الأدب	١١٩
١٠ – مع إمرسون . . في تفكيره المغرد	١٣١
١١ – مع تولستوي . . في شموخه	١٤٣

مقدمة

لَسْتُ في هذا الكتاب مؤلفا - إنما أنا قارئ . . .

ومع الفكر الإنساني في شتَّى آفاقه ، سنمضي معًا وقتا طيبا مباركا فيه .

وهذه المختارات التي طالعتها - بين ما طالعت - عزيزةٌ عليّ ، أثيرة لدي . . .

ومن أجل هذا ، أحببت أن تشاركوني متعتها والانتفاع بها .

وهي قليل من كثير ، مما تركه لنا الفكر العظيم .

وهذه المجموعة التي اخترتها تمثل ما تيسر لي - الآن - تذكره ، ثم الرجوع إلى مصادره ونشره . .

وحين شرعت أختار ، لم يندَّ عن ذاكرتي الغرض ؛ ولا الموضوع . . وتألقت في وجداني - ناصعة مبينة - معظم المواقف التي التقيت عندها ذات يوم بكلمات الفكر الرفيع .

وكان أول ما التمع منها في خاطري - كلمات سديدة رشيدة قوية ، تشكل موقفا باهرا ضد ما في الحياة البشرية من عجز . .

وكذب . ، وألم . .

ولم تزاور الكلمات عن ذاكرتي . . كما لم يغب عنها ، قائلها ومرسلها .

إنه محمد بن عبد الله عليه صلاة الله وسلامه . .

ومحمد . . هذا الرسول الصادق الأمين – حبّا البشرية من قلبه الكبير، وأعطاها من ذات نفسه ، ما يجعل مكانه – الأول دوما – كلما جاء ذكر الذين آزروها ، ومهدوا لها الطريق .

وهكذا أسعد الله صفحات هذا الكتاب ببداية سعيدة .

تلك هي : مع محمد ، ضد العجز ، والكذب ، والألم . .

° ° °

وحين نغادر هذه القمة العليا ، التي التقى عندها الوحي بالفكر . نُوَلِّي وجوهنا شطر أفذاذ من الخلق يفكرون بأصوات عالية مبهجة .

فنلتقي في الصين بـ « لاوتسي » ، و « كنفشيوس » ، و « منشيس » .

عمالقة يستنبطون الحكمة من أعماقها ، ويهدون سواء السبيل . .

وفي الهند ، نلتقي بـ « بوذا » . .

يا له من طود شامخ ، هذا البوذا العظيم . . !

وفي مصر القديمة نصغي لـ « امنموبي » ، و« بتاح حوتب » ، و« خيتي » – وهم يفكرون تفكيرا أخلاقيا عذبا . .

° ° °

ويتلاشى الزمان ، والمكان – فنرى أنفسنا وجها لوجه أمام « توم بين » .

أتعرفونه . . ؟ ؟

إنه إحدى معجزات العبقرية البشرية ، والضمير الإنساني .

إنه القائل : « هذا العالم قريتي » . .

° ° °

ونلتقي بعده بـ « جوركي » فتأخذنا صلصلة فكره المقتحم . وتشجينا تغاريده . ، وهو يُغني للحقيقة . وللمستقبل . .

ونودِّع جوركي – سراعًا – لنلاقي « إقبالا » .

« محمد إقبال »

إنه شاعر الهند وباكستان . وفيلسوفهما الكبير . . سنقرأ له . وهو يحدثنا عن التجربة الدينية . وعن مكانها في عصر العلم والتجريب . .

وبعد إقبال ، نصافح « فرويد »

إنه رجل يُخشى ويُحذر . . فله على فضح النفوس وكشف خفاياها مقدرة خارقة . . بيد أنه مع هذا يهدي إلينا من خير أطايب الفكر البشري وأكثرها نفعا .

* * *

وثمة جرس يقرع .

ماذا تقول دقاته . . ؟ ؟

إنها تردد كلمات « رابليه » .

« هنا . . ادخلوا » .

« ادخلوا جميعًا » .

« لندعم الإيمان العميق » .

فإذا دخلنا ، التقينا بالكاتب والأديب الفرنسي الكبير « ديهاميل » .

أما الإيمان العميق الذي جلس هناك يدعمه ، فهو الإيمان بالفكر ، وبرسالة الأدب والفن .

ونسارع صوب هذا الفنَن المزهر ؛ فثمة طائر يغرد .

إنه « إمرسون » – حكيم لا يمل سماع حكمته . .

ولسوف ينذرنا قائلاً :

« إن من يختار الراحة ، لن يشاهد الحقيقة » .

« ومن يختار الحقيقة ، يقضي العمر سابحًا بعيدًا » .

« عن كل مرفأ . . . . . » .

* * *

والآن . . لنسرع خطانا ، فنحن مع العملاق على موعد . .

تُولُستُويْ . . أيها الأصدقاء .

الرجل الذي ودَّع الراحة ، والمرافئ . .

وآثر رفقة العذاب العظيم والنبيل – بحثًا عن الحقيقة . ! !

وإنّا إذ نُنْهي رحلتنا هذه بـ« تولستوي » ، لَنفعل هذا قاصدين . . ذلك أنه بين مفكري البشر – واحة يلتمس عندها الهَناء .

وثمـــَّة يجمل بها الختام .

* * *

أين الأفذاذ الآخرون إذن . . ؟ ؟

أين فيثاغورس ، وأبيقـــور ، وسقراط ، وأرسطـــو ، وأفلاطون . . ؟ ؟

أين ماركوس أوريلوس ، وابن رشد ، والفارابي ، وابن

سينا ، والمعري وشكسبير . . ودانتي ، وماركس ، وهيجل ، وجيته ، وبقية الرفاق . . ؟ ؟

لقد قلت في بداية هذه السطور ، إنني أقدم لكم قليلا من كثير .

وصحيح أنني اخترت من الفكر الإنساني ، ما أُحِسُّ أن بيني وبينه رَحمًا قويَّة .

ولكن صحيح أيضًا ، أنني لم أجمع في هذه الصفحات كل ما تصلني به هذه الرَّحِم ، وهذه القُرْبَى . فالمجال محدود . . وقد يَسمح الغد بالمتابعة فيكون لي شرف تقديم بقيّة من تلك الأفكار الشوامخ .

• • •

الفكر الإنساني . . . ؟ ؟

تُرى إلامَ كانت الحياة ستصير بدونه . . ؟ ؟

لا شيْ . . بل وبدونه ، لا توجد للبشرية حياة . .

الولاء للفكر إذن . .

والإجلال للكلمة . .

ولكل من يقولها في شرف ، وفي صدق ، وفي شجاعة .

خالد محمد خالد

مع محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

ضد العجز، والكذب، واللؤم

المرجع { تيسير الوصول . إلى جامع الأصول - ابن الديبغ الشيباني -
رياض الصالحين - الأمام النووي .

جاء للناس بشيرًا . ونذيرا . يقول لهم « إنما أنا رحمة مُهْدَاة ».

ولقد كان كذلك فعلا . . وحين نعيش معه – عليه الصلاة والسلام – في المرحلة التاريخية التي عاشها ، والتي بلَّغ رسالته خلالها ، نبصر في غير عسر ، الآصار التي وضعها عن الضمير الإنساني ، والأغلال التي كانت نيرًا على الكيان البشري .

ومحمد رسول الله ، من أفذاذ الخلق الذين حلَّقوا في أعلى المستويات دون أن يفقدوا ثبات رُشدهم . . وحين كانت رأسه في السماء . ظلَّت قدماه على الأرض . وهكذا على الرغم مما رأى من آيات ربه الكبرى ، لا نجد له قط تلك الشطحات الوجدانية ، أو تلك الغيبوبة الروحية . . بل هناك دائما ، الحكمة الصادقة ، والتجربة الذكية اليقظى ، والفطنة الرشيدة ، تعبر عن نفسها في جوامع الكلِم الطيب الواضح المبين .

• • •

وموقف التوجيه المحمدي ، ضد ما في الحياة من كذب ، وعجز ، وألم – هو الذي أصدّر به هذه الصفحات ، وإنه لموقف باهر ، وجليل .

« سأله أصحابه يوما . يا رسول الله .
أيكون المؤمن جبانا . . ؟ قال : نعم
وعادوا يسألونــه : أفيكون بخيلاً . . ؟ ؟
قال : نعم . وسألوه للمرة الثالثــة :
أفيكون كذابا . . ؟ قال : لا . . . »

أي بَصر ثاقب ، وأية بصيرة عُليا . . ؟ ! !

إن محمدًا بهذه الكلمات يفضح الكذب . ويكشف عنه كشيء دخيل على الطبيعة الإنسانية ، متطفل عليها .

فالمؤمن . وهو عند الرسول النموذج المكتمل للانسان ، قد تُلِم به فترات ضعف فيجبن لأن الجبن مرتبط بإحدى غرائز البشر العتيدة . تلك هي غريزة الخوف . .

وقد تُلِمُّ به فترات حِرص فيبخل . ؛ لأن البخل مرتبط بإحدى غرائزنا الشِّداد أيضًا ، وهي غريزة الاقتناء . .

لكن هذا المؤمن لا يكذب . ولا ينبغي له أن يكذب . . لأن الطبيعة الإنسانية ، ليس فيها من القُوى الحتمية . ما يحمل على الكذب ، حتى غريزة الأنا نفسها . والمحافظة على الذات . لأنه لا شيء يزكي « الأنا » ويحافظ على الذات مثل الثقة بهــا ، واحترامها . . ولا شيء بالتالي . يمنحنا الثقة والاحترام مثل الصدق . .

ذلك أن الصدق وهو يتضمن الشعور التام بالمسئولية ، يوحي للآخرين بأن الصادق يحمل كل تبعاته تجاههم ، فيطمئنون إليه ، ويبحرون بمخاوفهم وهمومهم إلى مرافئه الدافئة الوديعة السعيدة .

والكذب مفسدة مطلقة ، لأنه سريع النمو ، سريع الانتشار ، وله ضراوة كضراوة الخمر أو أشد ، .

ويكشف الرسول عن هذا ، فيقول :

« لا يزال العبد يكذب ، ويتحرَّى الكذب فينكت في قلبه نكتة سوداء ، حتى يسود قلبه . . . »

وسواد القلب هنا ، يعني مسخ شخصية الكذَّاب ، ويعني أيضًا العقوبة الفادحة التي تحلُّ بالكاذب . . ذلك أن القلب الأسود لا يعجز عن رؤية غيره وحسب ، بل وعن رؤية نفسه أيضًا . . ومن ثَمَّ فالكذاب لا يبغض الآخرين وحدهم ، بل ويبغض نفسه قبلا . ولا يشك في الآخرين وحدهم . بل يشك في نفسه معهم . . وهذا هو الجزاء العادل الذي يحصد الكاذب شوكه . فمحنته لا تقتصر على عدم تصديق الناس له . بل إنها لتتمثل قبل هذا في عجزه هو عن تصديق الناس .

وهكذا ينقطع ما بينه وبينهم من أسباب ووشائج . ويصير قلبه الذي أحاله الكذب إلى سواد فاحم . . يستحيل كالمرآة التي علاها الصدأ . وفقدت كل صفائها . فلم يعد ينعكس عليها شيئ من مشاهد الحياة . .

وينفر التوجيه المحمدي من الكذب نفورا يستحيل معه أي تسامح تجاهه . . فالمزحة العابرة إذا انطوت على شيئ من الكذب تصير كذبا . .

« يقول عبد الله بن عامر : دعتني أمي يوما ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد في بيتنا . فقالت : ها . . تعال ، أعطك . . فقال رسول الله لها : ما أردت أن تعطيه . . ؟ قالت : أردت أن أعطيه تمرا . . فقال لها : أما إنك لو لم تعطه شيئًا ، كُتِبت عليك كذبة . . ! ! »

وللرسول حديث ، نستطيع أن نبصر فيه أذكى تصوير للإشاعة الكاذبة . فهو عليه السلام يقول :

« إن الشيطان ليتمثل في صورة الرجل فيأتي القوم ، فيحدثهم الكذب ، فيتفرقون ؛

فيقول الرجل منهم سمعت رجلا أعرف وجهه . ولا أعرف اسمه يحدث كذا ، وكذا . . . . . »

انظروا:أعرف وجهه ، ولا أعرف أسمه . . ! !

أليست هذه هي الإشاعة . . ؟؟

نتناقلها جميعًا ، دون أن نعرف مصدرها ، وحقيقتها . . وكل حجتنا معها هي « سمعت » .

إن التفكير المحمدي يفضح خبثها ، ويكشف شخصيتها . . إنها الشيطان . . نرى آثاره. الرديئة الوخيمة ، دون أن نعرفه أو نراه . . بل وربما دون أن يكون له وجود مادي على الاطلاق .

والثرثرة تشكل خطرا على فضيلة الصدق . لأنها تستدرج صاحبها إلى مزالق يفقد فيها توازنه وثباته وصدقه .

وهنا يلامس الرسول صميم هذه الزاوية التائهة من زوايا الرذيلة الخطرة . . رذيلة الكذب فينهَى عن الثرثرة . في كلمات مفكرة حكيمة – ويقول :

« كفى بالمرء كذِبا . أن يحدث بكل ما سمع . . . ويقول : احفظ عليك لسانك . .

ويقول : هل يكب الناس في النار على
مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم . . . . . »

وإذا كان الكذب في صوره العادية الدنيا ، يحظى بكل هذه الكراهية . ؛ فكيف هو في صوره الأكثر خطرا .

كيف هو ، حين يكون تزويرا لحقائق الحياة ، وتضليلا للوعي البشري . . ؟ ؟

لنصغ إلى محمد يقول :

« يكون في آخر أمتي أناس دجّالون كذّابون ،
يحدثونكم بما لم تسمعوا أنتم ، ولا آباؤكم ،
فإياكم وإياهم . لا يضلونكم ولا يفتنونكم . »

ليس كل ما لم نسمعه نحن ، ولم يسمعه آباؤنا قبلنا ، يكون كذبا . . وإلا استحال سير الزمن ، وسير المعرفة . .

وإنما توضع هذه العبارة مقياسا للفطرة الصادقة للحقيقة . فكل من يحاول تزوير هذه الفطرة ، وتعويقها عن طريق بث الكذب والافتعال ، إنما يلعب دور الكذاب الأثير ، والدجّال الخطر . .

والآن ، انظروا . .

ذات يوم، ذهب رجل إلى الرسول يسأله أن يدله على فضيلة واحدة تُظفره برضوان الله. فيجيبه الرسول: لا تكذب...

وينطلق صاحبنا نشوان فرحا.. فما أيسر هذا الواجب الذي سينال به خير الآخرة، دون أن يفقد شيئًا من شهوات الدنيا..

ولكنه لا يلبث حتى يكتشف أنه قد حمَّل نفسه كل تبعات الوجود الصحيح، حين حمَّلها مسئولية الصدق وحده..

فماذا يفعل إذا هو ارتكب إثما.. ثم سأله الرسول.؟

إن أجاب صادقا، افتضح إثمه..

وإن أجاب كاذبا، أخلَّ بعهده ووعده..

وهكذا، كان أخذه بالصدق سبيلا إلى التفوق على جميع نواحي ضعفه..

هذه هي عظمة الصدق.. إنه يرفعنا فوق مستوى الضعف فينا.

ونظرات الرسول إلى الأشياء. وإلى الحقائق تمتاز بالحس الإنساني العميق..

فهو يعلم أن حياتنا الانسانية المعقدة، تحتم في بعض الأحيان الخروج عن القاعدة.. ومن ثَمَّ لم ينس في حرارة ولائه للصدق،

أن يُشير إلى الحالات النادرة التي قد يُضطر الانسان فيها إلى أن يقول ما ليس صدقا ، ولكنه أيضا ، ليس كذبا . . فيقول عليه السلام :

« ليس بالكذاب ، الذي يصلح بين اثنين فيقول خيرا . . أو يُنمِّي خيرا . . ويسأله رجل قائلا : يا رسول الله . . . أكذِبُ امرأتي . .فيجيبه الرسول قائلا : لا خير في الكذب . . يقول الرجل : إني أعِدُها ، وأقول لها . . فيجيبه عليه السلام : لا جُناح عليك . . . »

° ° °

على أن محمدا يبلغ بالصدق أرفع منازله حين كان يقول :

« إنما أنا بَشَر . . »

يا لجلال هذا الإنسان . . .

في الوقت الذي يقول فيه صادقا إنه رسولٌ من الله للناس . يقول أيضًا . . أنا بَشر . .

وفي الوقت الذي كان معه من الله وحي . . كان أيضًا ، يبتدر أصحابه ليستشيرهم .

إنه هنا يحلق في أرفع منازل الصدق . . الصدق مع النفس . .

والصدق مع النفس يعني معرفتها جيدا ، ويعني التفوق على خداعها ، ويعني أخيرا احترام الحقيقة احتراما يجعل الاذعان لسلطانها عبادة وشعيرة . . وعندئذ يبرأ الإنسان من آفة الكبر التي تجعله يرى نفسه فوق الحق ، وفوق الصدق . . والتي يقول الرسول عن أصحابها :

« لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب
في الجبارين ، فيصيبه ما أصابهم . . . . »

كذلكم يبرأ الإنسان من آفة الجبن التي تجعل صاحبها يهرب من الحق ، ويتجنب تبعات الصدق . . تلك الآفة التي يدعو الرسول إلى مقاومتها فيقول :

« ألا لا يمنعن رجلا هيبة الناس أن يقول
إذا علمه . . . . »

وتنفذ بصيرته الثاقبة إلى أعماق فضيلة الصدق ، فيكشفها مرتبطة بأقصى حاجاتنا الإنسانية . . أجل مرتبطة بسكينة النفس التي نسعى جميعًا نحوها ، ونعمل دائبين لإدراكها - فيقول :

« دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، فإن الصدق
طمأنينة ، والكذب ريبة » .

° ° °

وضد العجز ، يقف « محمد » وقفة ذكية بليغة .

« استعن بالله ، ولا تعجز » .

هذا هو التوجيه السديد الذي كان يملأ به دائمًا أفئدة الناس .

بيد أن ذلك لا يكفي . وإنه ليتعقب دواعي العجز ، فيفضحها ، ويذروها مع الرياح . . ! !

إن من دواعي عجزنا ، التهيب . .

هنا يقول الرسول للمتهيب تقدم . فإنَّ :

« ما أخطأك لم يكن ليصيبك . . وما أصابك
لم يكن ليخطئك . . ولو اجتمع الناس على
أن ينفعوك ، لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك .
ولو اجتمعوا على أن يضروك ، لم يضروك إلا
بشيء كتبه الله عليك . . . . »

كثيرًا ما يخطئ ناس يتصورون في مثل هذا الحديث دعوة إلى التسليم ، وتوكيدًا للقدرية . . . ولكن ، لا . . .

والحديث هنا يوضع داخل إطاره الصحيح . إنه مقاومة للعجز ، ودفع للنفس إلى الاقتحام وإلى تخطي ضعفها . ومجاوزة ذاتها .

ومن دواعي العجز كذلك ، التردد الذي يشل القدرة على الحسم والاختيار.

وهنا يتألق فيوصي :

« إذا عزمت ، فتوكل .... »

ومن العجز – أيضًا – الهروب من تبعات التقدم . . والزحف إلى الوراء ، تخليًا عن واجبات الغد . .

وهنا يجلجل الرسول عليه السلام قائلا :

« يذاد أناس من أمتي يوم القيامة عن
الحوض ، فأنهض لأشفع لهم . . فيقول
الله لي . . لا تفعل . إنك لا تدري ما أحدثوا
بعدك . . . ! إنهم كانوا يمشون القهقرى
على أعقابهم .... ! »

ومن دواعي العجز الندم والتشاؤم . .

فالندم قوة مُثبطة تحتبس الجهد البشري داخل قوقعتها ، وتصيبه بشرٍّ ما يمزقه ، ومثله تماما ، التشاؤم . .

فماذا يقول الرسول فيهما :

« لا تقل : لَوْ . . . فإن لَوْ تفتح عمـــل

الشيطان . . . . »

إن الشيطان هو الرمز الحي لكل رذيلة . . والرسول ينهى عن كلمة « لَوْ » وينهى عن موقف الندم المثبط ، لأنه يفتح الباب لكافة الرذائل المرتبطة به من يأس ، وقعود عن العمل . .

وفي التشاؤم يقول :

« الطِّيرة شرك . . الطيرة شرك . . الطيرة شِرك . . . . »

والطيرة هي التشاؤم .

وأيضًا يقول عليه السلام :

« لا عَدْوَى . . ولا طِيَرَة . . ويعجبني الفأل . . سأله أصحابه : وما الفأل . ؟ ؟ فأجابهم . . كلمة طيبة . . . . »

• • •

وضد الألم تواجهنا وقفة بارَّة . . إن الحياة مقدسة . . وكل إيلام لكائن حي ، أيا كان ذلك الكائن ، امتهان لحرمة الحياة .

انظروا .

« دخلت امرأة النار في هرة حبستها ، فلا

هي أطعمتها ، ولا هي تركتها » . .

ويروي ابن مسعود هذه الواقعة :

« كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر ، فانطلق لحاجته ، فرأينا حُمرَة معها فرخـــان . ، فأخذنا فرخيها . ؛ فجاءت الحُمَّرة تعرش . فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال : من فجع هذه بولدها ؟ ردوا ولدها إليها » .

ويقول الرسول أيضًا :

« بينما بغي تسير إذْ رأت كلبًا يلهث من الظمأ ، فخلعت موقها ، وأدلته في بئر وسقته ، فشكر الله لها » . . .

إن الرسول بهذه النماذج يكشف عن مقاومته لكل ألم يُوجَّه إلى الحياة . . حتى في صورها الدنيا .

انظروا .

« إذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليُرِح أحدكم ذبيحته ،

ولْيُحِدَّ شَفرته » . . .

ترى كيف تبلغ مقاومته للألم الذي يوَجَّه إلى قمة هذه الحياة . . إلى الإنسان .

ها هو ذا يتكلم فيقول :

« إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا . . . . »

أيا كان هذا العذاب ، وهذا الإيلام ، ولو لطمة عابرة .

« من لَطم غلاما ، فإن كفارته أن يعتقه . »

ويقول ابن مسعود :

«كنت أضرب غلاما لي بالسوط ، فسمعت صوتًا من خلفي يقول : اعلم أبا مسعود . ، فلم أفهم الصوت من الغضب . فلما دنا مني إذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو يقول ، اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام . . فسقط السوط من يدي من هيبته . . وقلت: يا رسول الله ، هو حر لوجه الله ، فقال: أما إنه لو لم تفعل

للفحتك النار » . . .

أجل إن نار القصاص تنتظر على شوق جميع الذين يزيدون متاعب الناس ، ويدخلون على حياتهم الآلام والفجائع .

ويقول الرسول :

« خيركم من يُرجى خيره ، ويؤمَن شره .
وشركم من لا يُرجى خيره ، ولا يؤمَن شره » . .

والتوجيه المحمدي ، لا يقاوم الألم الجسماني وحده . بل يواجه الألم الاجتماعي قبلا ، فيقوض ما أسعفته الظروف . كل دواعي هذا الألم الاجتماعي من استغلال ، واحتكار ، وأنانية . واستعلاء .

الربا – مثلا – استغلال لحاجة الناس ، فيقول محمد فيه :

« لعن الله آكل الربا ومُوكله » . . .

والاحتكار ، إزجاء لأزمات الناس . ، فيقول الرسول فيه :

« بئس العبد المحتكر – إن أرخص الله تعالى
الأسعار حزن ، وإن أغلاها فرح » .

« من احتكر طعاما أربعين يوما يريد به
الغلاء ، فقد برئ من الله تعالى ، وبرئ

الله تعالى منه . . . . »

كما تروى عنه كلمات تناهت في القوة :

« يحشر الحاكرون وقتلة الأنفس في درجة واحدة . ومن دخـــل في شيء من سعر – الناس – يغليه عليهم كان حقا على الله أن يعذبه . . . . »

واستغلال الجهد البشري محظور :

« أعطوا الأجير أجره ، قبل أن يجف عرقه » .

والظلم بكافة صُنوفه جريمة ضد الإنسان .

« إن الله يُملي للظالم ، فإذا أخذه لم يُفلِتْ » . .

ويدعو الظالمين أن يتوبوا ، ويتخففوا من ظلمهم قبل أن يدهمهم يوم القصاص .

« من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شيءٍ ، فليتحلَّله منه اليوم ، قبل ألا يكون دينارٌ ولا درهم » . . .

والكِبر إهانة للناس ، والمتكبرون شِرار حمقى .

« يحشر المتكبرون أمثال الذَّر ، يغشاهم الذل

من كل مكان . لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يُكتب في الجبارين ، فيصيبه ما أصابهم » . . .

° ° °

هذه توجيهات في القمة ، تمثل الفكر الأخلاقي عند رسول أمين . . وتقف شامخة بالغة ضد ما في الحياة الانسانية من عجز ، وكذب ، وألم .

مع الصين
في حكمتها الجزيلة

المراجع { قصة الحضارة – تأليف – ول ديورانت
جزء رابع – ترجمة – الأستاذ محمد بدران

عاشت الصين القديمة وطنا كبيرا للحكمة ، وللفلسفة . ومن قبل ميلاد المسيح بآلاف السنين ، وبعد ميلاده أيضًا . وأهل هذه البلاد العظيمة يفكرون بأصوات مسموعة . . كلهم حكماء ، وإن تفاوتوا في خلق الحكمة وفي الأخذ بها .

كانوا يقدسون الرجل الحكيم ، وكانت الحكمة ، هي دينهم الذي يحرصون عليه . وكل امرئ لا يعشق الحكمة ، ولا ينال منها حظا ، فليس بحي .

ومن الأقوال التي كانوا يتوارثونها في هذا المعنى كلمة « كونفشيوس » .

« ما أشقى الرجل الذي يملأ بطنه بالطعام
طوال اليوم دون أن يجهد عقله في شئ – لا
يتواضع في شبابه التواضع الخليق بالأحداث .
ولا يفعل في رجولته شيئًا خليقًا بأن يأخذه
عنه غيره ، ثم يعيش إلى أرذل العمر . . إن
هذا الإنسان وباء . . . . ! ! »

ومن الصعب في مواطن كثيرة أن نحدد نسبة حكمة بعينها

إلى حكيم بعينه . سيما في ذلك العهد البعيد . لكن ليس من الصعب أن نحدد نسبتها إلى الصين ، فحكمة الصين تحمل دائمًا توقيع حكمائها ، وإن لم يكن هذا التوقيع منظورا . . ولحكمة الصين عبير خالص يقودك إليها ويدلُّك عليها .

وفيما طالعتُ من هذه الحكمة ، وقفت طويلا أمام أفكار شامخة ، وكلمات جامعة .

وجدير بالذكر حقا ، شغف هذا الفكر بالحرية ، وبالسلام ، وبالاستقامة .

هذه الثلاثة ، هي ليلاه التي يُغَنّي لها ، ويَلْهَجُ بها .

انظروا .

« يعرف الأمبراطور كيف يحكم إذا
كان الشعراء أحرارا في قرض الشعر . .
والناس أحرارا في تمثيل المسرحيات . .
والمؤرخون أحرارا ، في قول الحق . .
والوزراء أحرارا ، في إسداء النُّصح . .
والفقراء أحرارا ، في التذمر من الضرائب .
والطلبة أحرارا ، في تعلم العلم جهرة . .
والعمال أحرارا ، في إطراء مهارتهم ،

وفي السعي إلى العمل . . والشعب حرا ،
في أن يتحدث عن كل شيء . .والشيوخ
أحرارا، في تخطئة كل شيء . . . . »

وهذه الجوامع تمثل دستورا للحكم الصالح الذي كانت الصين تنشده ، وتحرض عليه ، وهي – كما ينقل لنا ديورانت – من خطبة ألقاها حوالي عام « ٨٤٥ » قبل الميلاد ، دوق جَوْ. بين يدي الملك « لي – وانج » .

ويقول الفيلسوف « منشيس » :

« إن الناس أهم عناصر الأمة والدولة ،
وإن الملك ، أقل هذه العناصر شأنا » .

وتجمع بين الحرية والسلام في هذا الفكر العظيم عروة وثقى ، لا انفصام لها .

وحين نطالع الحكمة التالية ، والتي صيغت شعرًا ليتغنى بها الشعب جميعه . ؛ في عهود بعيدة موغِلة في البعد ، نرى كيف كان البشر دوما يدركون ، ما الحرية ، وما السلام ، بالنسبة لحياتهم ومصايرهم .

« ألا ما أعظم حرية الأوز البري وهو يطير
في الفضاء ثم يتمتع بالراحة فوق أغصان

شجر اليو ، الملتف الكثيف. أما نحن ، الدائمو الكدح في خدمة الملك ، فإننا لا نجد من الوقت ما نزرع فيه الذرة والأرز . . تُرى على أي شئ يعتمد آباؤنا . . ؟ ؟ حدثيني أيتها السماء الزرقاء . متى ينتهي هذا كله . . ؟ ؟ متى ينتهي هذا كله . . ؟ ! وهل في الأشجار أوراق تصبح بعد أرجوانية . . ؟ وهل بقي في البلاد رجل لم يُنتزع من بين ذراعي زوجته . . ؟ رحمة بنا نحن الجنود ألسنا نحن أيضًا آدميين . . ؟ ؟ ! . . . . . . »

ويوالي الفكر الصيني دمدمته على الحرب ، فيغني للسلام شاعر صيني قديم ، وعريق ، هو « دوفو » .

« في الليلة الماضية صدر أمر حكومي بتجنيد الفتيان الذين بلغوا الثامنة عشرة. أيتها الأم ، وأيها الأبناء ، لا تبكوا هذا البكاء . . إن هذه الدموع التي تذرفونها ، تضرُّ بكم . . وحين تقف الدموع عن الجريان تبرز العظام . . ووقتئذ لا ترحمكم الأرض ، ولا السماء . .

وهل تعرفون أن في شانتونج مائتي مقاطعة قد استحالت صحارى مجدبة وأن آلافا من القُرى والمزارع قد غطاها الحسَك والشوك.. ؟ وأن الرجال يذبحون ذبح الكلاب ، والنساء يُسقْن كما يساق الدجاج . . ولو أنني كنت أعرف ما هو مخبأ للأولاد من سوء المصير لآثرت أن يكون أطفالي كلهم بنات . . ذلك أن الأولاد لا يولَدون إلا ليدفنوا تحت العشب الطويل . . ولا تزال عظام من قضت عليهم الحرب في الماضي البعيد مدفونة بجوار البحر الأزرق ، تراها وأنت مار فهي بيضاء رهيبة ، تراها العين فوق الرمال . . هنالك تجتمع أشباح الصغار ، وأشباح الكبار ، لتصيح جماعات. وإذا هطل المطر ، وأقبل الخريف ، وهبَّت الريح الباردة . . علَت أصواتهم ، حتى علمتني كيف تقتلُ المرءَ الأحزان . . إن الطيور تتناغى في أحلامها ، وهي تُحلِّق فوق الماء . . والبراعة ،

تشع بضيائها في غسَق الليل . . فلمَ يقتل
الانسان أخاه الأنسان ليعيش . . . ؟ ؟ ؟ »

ويعلن « منشيس » وهو فيلسوف من أنبه فلاسفة الصين أن الأبطال ليسوا هم الذين يكسبون الحروب مهما تكن عادلة . بل هم من يربحون السلام . . ويقول هذه العبارة المتناهية في الايجاز ، والمتناهية في العظمة .

« ليس ثمّة حرب عادلة . . . . »

ثم يقول :

« من الناس من يقول إني بارع في تنظيم
الجند . . وإني ماهر في إدارة المعارك . .
أولئك هم المجرمون حقاً . . . . »

• • •

فإذا جلسنا بين يدي « لاوتسي » . . . لاوتسي العظيم ، سمعناه يقول :

« عندما يسود الحق ، تُسخَّر الخيل لأعمال
المزرعة . . وعندما يسود الباطل ، تُسخَّر
الخيل لخوض المعركة . ! ! . . . . »

ما أروعه من فكر . .

ولو أن الحق يسود اليوم لسُخِّرت ميزانيات الحروب المبهظة لأعمال المزرعة . . . مزرعة الحياة البشرية الوارفة السعيدة . .

أما والباطل يسود ، فإن عرق الكادحين ، وميزانيات الدول تُسخَّر للمعركة ، وللتدمير ، وللفناء . .

ويقول لاوتسي :

« إذا لم تقاتل الناس ؛ فإن أحدا على ظهر الأرض ، لن يستطيع أن يقاتلك . . . قابل الإساءة بالإحسان . . أنا خيِّر للأخيار . وخير لغير الأخيار . . وبذلك يصير الناس جميعهم أخيارا . . أنا مخلص للمخلصين ، ومخلص لغير المخلصين ، وبذلك يصير الناس جميعهم مخلصين . . وألين الأشياء في العالم تصدم أصلبَها ، وتتغلَّب عليها . وليس في العالم شيء ألين ولا أضعف من الماء . . ولكن لا شيء أقوى من الماء في مغالبة الأشياء الصلبة القوية . . . . »

هكذا يمجد ذلك الفكر الشامخ العريق ، السلام ، والحرية .

وأخرى يمجدها أعظم تمجيد . . تلك هي الاستقامة . .

والاستقامة في الحكمة الصينية ، شئ صعب حقا ، وعسير المنال إلا على أولي العزم من الرجال .

وهي تتمثل في « أعمال نظيفة جدا . . وبواعث نظيفة جدا » .

وللفيلسوف العظيم « كونفشيوس » عبارة تشع بالنور ، ولكنها أيضًا تقذف بالرهبة لما يتطلبه تطبيقها من جهد جهيد . .

« حياتي . . هي صلاتي . . . . ! ! »

ماذا نقول في شرح هذه العبارة المضيئة ، وأي كلمات تقدر على التهويم حولها ، ومحاولة تفسيرها . . ؟ ؟

« حياتي . . هي صلاتي » . .

والعمل الذي هو قوام الحياة ، لا يهدف لشئ سوى تحقيق الحياة الصالحة .

والمجد . . والشهرة . . وبقية العائلة كلها . . ليست أكثر من عصابة تسرق أنبل ما في الطبيعة الخيِّرة ، وتضلل سعي الحياة .

« من يطرح المجد ولا يعبأ به ينج من

الأحزان . . . . »

هكذا قال « يو– دزه » .

ويتألق « لاوتسي » وهو يوضح هذا المعنى فيقول :

« إن كل ما في الطبيعة من أشياء ، تعمل وهي صامتة . . وإنها لتوجَد ، وليس في حوزتها شيْ . ، وتؤدي واجبها دون أن تكون لها مطالب.وكل الأشياء على السواء ، تعمل عملها ، ثم نراها تسكن وتخمد ، وإذا ما ترعرعت ، وازدهرت ، عاد كل منها إلى أصله . وعودة الأشياء إلى أصولها ، معناها راحتها وأداؤها ما قدِّر لها أن تؤديه . وعودتها هذه قانون أزلي ومعرفة هذا القانون ، هي الحكمة . . . . »

فليعملَ العاملون في صمت . . مثل أمهمَ الطبيعة ، وليكن اكتشاف الحكمة الكامنة في قوانين وجودهم ، خير مثوبة لهم وخير جزاء .

أما العمل ابتغاء المجد ، والكبرياء ، والطمع ، فعاقبته خُسران .

« إذا ما حانت ساعة الرجل العظيم ، قام
من فوره وتولى القيادة . أما قبل أن تحين
هذه الساعة ؛ فإن العقبات تقام في سبيل
كل ما يحاوله . . ولقد سمعتَ أن التاجر
الموفَّق يحرص على إخفاء ثروته ، وأن الرجل
العظيم بسيط في أخلاقه وفي مظهره ، رغم
ما يقوم به من جلائل الأعمال . . فتخلص
من كبريائك ومطامعك الكثيرة ، ومن
مطامعك ، وآمالك المفرطة البعيدة . . .
إن هذه كلها لا ترفع قط من أخلاقك ،
وهذا هو ما أشير به عليك . . . . »

هكذا تحدث لاوتسي إلى كونفشيوس ، حين سعى هذا الأخير إليه يلتمس منه التوجيه والنُّصح . . .

ولقد حَذِق « كونفشيوس » الدرس ، وسار على الدَّرب . .

يقول في هذا المعنى :

« إن ما يبحث عنه الرجل الأعلى ، هو ما
في نفسه ، أما الرجل المنحط ، فيبحث عما
في غيره . . . والرجل الأعلى ، يحزنه

نقص كفايته ، ولا يحزنه أن يجهله الناس ،
وإن كان يكره ألا يذكروه بعد موته . وهو
متواضع في حديثه . . متفوق في أعماله .
فلم يتكلم . . فإذا تكلم أصاب من فوره
هدفه. والرجل الأعلى ، يتحرك بحيث تكون
حركاته في جميع الأجيال طريقا عاما . .
ويكون سلوكه ، بحيث تتخذه جميع
الأجيال قانونا عاما . وإنه ليعمل قبل أن
يتكلم ، ثم يتكلم بعدئذ وفق ما عَمِل وما
يعمل . . . . »

أينا لا يحسُّ ما في هذه الكلمات الحكيمة من روعة آخذة . .

وأينا لا يحس بمرارة العجز عن تحقيقها . . ؟ ؟

والحياة في حركتها الداهمة ، وضجتها الحافلة ، هي البوتقة التي تصهر الناس الطيبين عند كونفشيوس . . وفي هذا يقول حكمة تناهت في الجزالة والقوة :

« الناسك الذي يهرب إلى الصومعة ويعتزل
الناس ، لا يأتي أمرًا مذكورًا . . أما ناسك
المدينة ، فهو الناسك حقا . . . . »

وينأى الفكر الصيني عن رؤية الأشياء منعزلة متباعدة ، ويطلب أن يراها داخل علاقاتها المشتركة ، ووحدتها الكبرى .

يقول « كونفشيوس » :

« إن ما أطلبه هو الوحدة . . الوحدة الشاملة » .

ويهتف « وانج يانج – مانج » بأن الطبيعة هي الخير الأسمى ، وما الفضيلة الكبرى إلا إطاعة قوانينها .

– قيل له : إن في الطبيعة أفاعي ، كما أن فيها فلاسفة ؟

فأجاب : « إن الخير والشر لفظان تسمى بهما الأشياء حسب ما فيها من نفع أو أذى لبني الانسان » .

ويستطرد قائلا :

« إن الغرض الذي تهدف إليه السماء من وراء عملية الخلق ليتمثل في الأزهار والحشائش ، فهل لدينا طريقة نفرق بها بينهما ؛ فنقول هذه خير وتلك شر . . ؟ ؟ إذا سرّتك رؤية الأزهار ، قلت : الأزهار حسنة . . وإذا كانت بك إلى الحشائش حاجة قلت إنها خير ؛ إذن فالخير والشر

قادمان مما هو كامن في عقلك ونفسك من حب هذا الشيء أو كراهيته، وإذن فهما لا يوجدان في الأشياء نفسها، إنما يوجدان في عقل الإنسان........... »

مع بوذا
في بحثه عن الحقيقة

المراجع { قصة الحضارة – تأليف – ول . ديورانت
جزء ثالث – ترجمة الدكتور زكي نجيب

أنا لا أعرف شيئًا عن سرّ الاله . ، ولكني
أعرف أشياء عن بؤس الإنسان . . . . . »

منذ أعوام بعيدة ، قرأت هذه الحكمة الفذّة . لم أقرأها في كتاب . ولكن في مجلة كانت تنتظم بحثا عن بوذا . . .

وأذكر أنني حين طالعتها ، نحيت المجلة من فوري . . ولم أستطع متابعة القراءة وألقيت بفكري كله في المحيط الكبير الهادي . الذي مثلته لي هذه الحكمة .

ومن تلك اللحظة ، قررت أن أبحث عن بوذا في كل مكان . . ومضيت أقرأ له ، وأقرأ عنه .

وجمال هذه الحكمة ونفعها . يتمثلان في أنها تأخذ ألبابنا عن « السفسطة » التي تكتنف تفكيرنا في ذات الله . ، وتتجه بنا صوب اليقين المتمثل في اكتشاف واجباتنا تجاه الله . .

والإنسان . . الإنسان وحده . . الإنسان في بؤسه ، وفي وجوده ، هو جُماع هذه الواجبات .

إن بؤس الإنسان على هذه الأرض ، يتطلب كل ما للبشرية من وقت ، وكل ما معها من جهد . ؛ ففيم فِرار الناس من أقدس

واجباتهم . . ؟

وفيم إعراضهم عن العمل الذي من أجله خُلِقوا ، وبه أُمِروا . . ؟ ؟

ألا يعلمون أنهم بهذا ، إنما يعرضون عن مشيئة الله نفسها . ؟

تلك هي الحكمة الجليلة التي عاد بها بوذا من رحلته الطويلة ، وتقلُّبه في البلاد ، وفي الفيافي ، وتأمله العميق عمق الحقيقة . .

أجل . . تلك هي :

« أنا لا أعرف شيئًا عن سرّ الاله ولكني أعرف أشياء عن بؤس الانسان . . . . . »

والفضائل الكبرى للنفس الإنسانية ، هي ما يريده بوذا للناس لكي يَسعدوا ، ويستريحوا من اللأواو والشقوة .

وأي طريق سويٍّ يفضي بهم إلى تلك الفضائل وتلك الراحة ، فهو طريق الله .

يا له من فكر شامخ ، هادٍ ، مضيْ . .

« قصده ذات يوم برهمي ، مستأذنا في السفر إلى « جايا » ليستحم فيه ، ويطهر نفسه من خطاياها . فقال له بوذا : استحم

هنا . . نعم هنا . . فليس ثمة حاجة تدعوك
إلى السفر إلى « جايا »

ثم عانقه بنظرات عينيه الصافيتين وقال :

« أيها البرهمي . . كن رحيما بالكائنات
جميعًا وإذا أنت لم تنطق كذبا . . .
ولم تقتل روحا . . ولم تأخذ ما لم يُعط لك . .
ولبثت آمنا في حدود إنكار ذاتك . .
إذا فعلت ذلك ، فماذا تجني من الذهاب
إلى « جايا » . . ؟ ؟
إن كل ماء يكون عندئذ -جايا- . . . ! !

ويرسم صديق الإنسان الحميم ، نهجا للتعايش والتعامل .

« على الإنسان أن يتغلب على غضبه بالشفقة . .
وأن يُزيل الشرّ بالخير . . إن النصر يولد
المقت ، لأن المهزوم في شقاء . . وإن
الكراهية ليستحيل عليها في هذه الدنيا
أن تزول بكراهية مثلها . . إنما تزول
الكراهية بالحب » .

• • •

ومن الذي يدفع الألم عن الإنسان . . ؟

الإنسان نفسه .

ومن الذي يحقق عظمة الإنسان . . ؟

الإنسان ذاته . دون أن يعتمد على أحد سواه .

وهكذا كان بوذا ، وهو يلقي إلى تلامذته بخلاصة فكره وحكمته يثير شكوكهم فيما يقول . حتى يكتشفوا لأنفسهم ، وبأنفسهم الحقيقة والطريق .

تقدم منه يوما « ساريبوتا » وقال . . .

« سيدي . . إن إيماني العظيم بك ليبلغ من القوة بحيث لا أظن أن أحدا ممن مضوا ، أو ممن يعاصروننا أعظم وأحكم منك يا نبينا العظيم .

فأجابه بوذا : كلماتك – يا ساريبوتا – عظيمة وجريئة ، والحق أنك بكلماتك هذه قد رحت تنشد أغنية نشوان . . وكأني بك قد عرفت إذن كل الأنبياء والحكماء الذين سلفوا ، وعرفت ، فيم كانوا يفكرون ، وماذا كانوا يعملون ، وأي تفوق وتحرر

أحرزوا لأنفسهم؟؟!!»

ويجيب ساريبوتا :

«كلا ، يا سيدي ، لم أبلغ من الأمر هذا . .

بوذا – إذن فلا أقل من أن تكون قد عرفتني وبلوت حقيقة أمري . . ؟؟

ساريبوتا – ولا هذا . . يا سيدي . .

بوذا – إذن ، فما دمت – يا ساريبوتا – لم تطالع أفئدة الأنبياء الحكماء الذين سبقوا . ولا تعرف شيئًا عن أقدار الذين سيجيئون . فلماذا تنعتني بأنني أكثرهم حكمة . . ؟ ولماذا هذه الكلمات العظيمة الجريئة . . ؟؟»

ويواصل « بوذا » درسه البليغ العظيم فيقول :

« إن كل من يصير لنفسه مصباحا يهدي وكل من يصير لنفسه ملاذا يؤوي ، فلن يلتمس لنفسه من غير نفسه مأوى . . . وسيستمسك بالحق مصباحا . ؛ فلا يطلب من غير نفسه ملاذا . . أمثال هؤلاء هم

الذين يبلغون أعلى الذُّرى لكن عليهم أن
يَشغفوا بالمعرفة . . . . »

مع مصر القديمة وهي تفكر...

المراجع
الأدب المصري القديم : للأستاذ سليم حسن
التاريخ المصري القديم : للمرحوم الأستاذ عبد القادر حمزة

قبل الميلاد بآلاف من الأعوام ، كانت مصر القديمة تفكر تفكيرًا عاليًا مضيئا ، وكانت الحكمة تستوطن معابدها وأبهاءها . . وكان ورق البردي يحمل في أمانة ورشد أجل تبعات التاريخ فيحتفظ على صفحاته العريقة بأنباء القرون وآياتها . .

وفي إحدى أوراقه ووثائقه الثاوية حتى اليوم في المتحف البريطاني ، عثر السير « ولس بدج » عام ١٨٨٨ على تعاليم « امنموبي » .

ويبدو أن هذه التعاليم التي قيلت قبل الميلاد بحوالي ألف عام ، كانت تمثل مستوى عاليا من الفكر الأخلاقي والاجتماعي لأهل زمانها مما أتاح لها يومئذ شيوعا ، وتقديرا كبيرين .

إن الاحساس الانساني في الفكر المصري القديم ينبض نبضا قويا ، بارا ، رحيما . .

انظروا . . .

« احذر أن تسلب فقيرا بائسا . وأن تكون شجاعا أمام رجل مَهيض ، . . ! ! »

يا لروعة هذه العبارة . . احذر أن تكون شجاعا أمام رجل

مهيض ، . . . إنها تمثل ضميراً بلغ رشده ، بل جاوز رشده . .

ولا تسخرن من كلمة رجل هرم ولا تكن
قط رسول سوء . . ومن فعل فاحشة ، فإن
المرفأ يفلت منه وأرضه المبللة تحمله بعيدا . .
وكذلك إعصار الشمال يهب ليقضي على
حياته . . . . »

° ° °

ويرتفع هذا التفكير الشامخ بمستوى نفسه وبمستوى الكلمة فوق أضغان الجدل وحماقات الحِجاج فيقول :

« لا تشتبكن في جدال مع أحمق ولا
تجرحه بالألفاظ . . تأنَّ أمام متطفل .
وأعرض عمن يهاجم . . . . »

واستمعوا جيدا لهذه الفقرة المتألقة .

« نم ليلة قبل التكلم . . . . . ! ! . . . . »

أي تعبير يدعو للأناة في الحديث . ولِتدبر الكلمة قبل نطقها ، يبلغ من العذوبة ومن الجمال ، ومن العراقة ما يبلغه هذا التعبير ؟ ؟

« نم ليلة قبل التكلم . . لأن العاصفة تهب

مثل النار في الهشيم . . والرجل الأحمق في ساعة غضبه . . يجب أن تنسحب من أمامه ، وتتركه لحماقته . . والله يعلم كيف يجزيه . . إذا أمضيت حياتك واعيا هذه الأشياء في قلبك . . فأن أولادك سيبصرونها . . . . . »

ثم يضرب للأحمق مثلا ، وللحكيم الحليم مثلا .

« أما الأحمق فمثله كشجرة نبتت في الغابة في لحظة تفقد خضرتها . . ويكون مصيرها في مرفأ الأخشاب . . أو تنقل بعيدا من مكانها . . حيث النار مثواها . . أما الرجل الحليم حقا . . فمثله كشجرة باسقة في حديقة ، تنمو يانعة وتضاعف ثمرتها . . ثمرتها حلوة . ، وظلها ظليل وتظل مكانها في الحديقة . . . . »

• • •

ثم يمجد العمل المستقيم الأمين ، ويبارك الثروة التي يضيئها

الجهد النظيف ، والتي لا أثر فيها لغضب أو بغي .

« ازرع الحقول ، كي تجد ما تحتاج إليه
وكي تجني خبزك من حرثك . . وإن المكيال
الذي يعطيك الله إياه ، خير لك من خمسة
آلاف تكسبها بالبغي ، وأرغفة تكسبها
بقلب فرح ، خير لك من ثروة مع شقاء . .
لا تفرحن من أجل ثروة تأتيك عن طريق
السرقة فإن زورق الرجل الشرِّير يغوص في
الوحل . ، وزورق الرجل « الأمين » يقلع
مع النسيم . . . . »

ويتألق هذا الفكر الأخلاقي الرصين ، حين ينساب شرايين حيَّة في الضمير ، ويتحدث عن استقامة الشخصية ووضوحها .

« لا تتكلمن مع إنسان كذبا فذلك ما يمقته
الله . . ولا تفصلن قلبك عن لسانك . ؛
حتى تكون كل طرقك ناجحة . . وكن
ثابتا أمام غيرك من الناس لأن الإنسان في
مأمن في يد الله . وإن الممقوت من الله من
يزور في كلام لأن أكبر شيء يكرهه هو النفاق . .

وإن النجاح ليخطئ الانسان الخائن. لا تؤدين شهادة كذبا ولا تستعمل قلمك في باطل. كن حازما في قلبك وثابتا في عقلك ولا تتحرك مع لسانك.. ولا توجهن كل التفاتك إلى فرد قد لبس ملابس بيضاء ناصعة.، بل احترم أيضًا لابس الخرقة البالية، ولا تظلمن ضعيفا من أجل رجل قوي.، وابغ الحياة لنفسك...»

وطالعوا هذه الكلمات الحكيمة المفكرة :

«لا تمنعن أحدا من عبور النهر.. إذا كان في زورقك مكان.. ولا تصنعن لنفسك معبرا على النهر.. ثم تجاهد بعد ذلك لتجمع أجره.. خذ الأجر من الرجل الثري.. ورحّب بمن لا يملك شيئًا........»

ويوصي بالكتمان ، والحصافة فيقول :

«إن التمساح الصامت يكون الفزع منه شديدا.. لا تفضين بقرارة نفسك لكل إنسان.. ولا تُتلفن بذلك نفوذك»

وقبل الوقت الذي غردت فيه هذه الحكمة بزمان طويل . .

وفي عصر الأسرة الخامسة ، نلتقي بالوزير الحكيم « بتاح حوتب » يفكر ، ويتحدث :

« إن الصدق جميل ، وقيمته خالدة . .
وإنه لم يتزحزح منذ يوم خالقه . . والذي
يتخطى نواميسه يعاقب . . وهو أمام الضال ،
كالطريق المستقيم . . إن الشر ، والكذب
قد يكسبان الثروة . . ولكن قوة الصدق
في أنه يمكث . . والرجل المستقيم يقول :
هذا ميراث أبي . ! ! . . . . »

ويتابع « بتاح حوتب » حديثه فيقول :

« إذا كنت قادرًا ، فاجعل عنايتك في
العلم ، وفي القول الفصيح . ، واذكر أن
التصرف المطلق يؤدي إلى السوء . . . . .
لا تكن أقوالك مصحوبة بالأنفة . . .
وتكلم بدون حدّة . . إن الرجل الهادئ
يخوض عباب العوائق والرجل الدائم الغضب

لا يتيح لنفسه وقتًا طيبًا .... »

ويتحدث « خيتي » أحد ملوك الأسرة العاشرة :

« سيُنشر الإنسان حين وصوله إلى الشاطئ الثاني وسيجد أعماله هناك ، محيطة به .. إنها الأبدية لا شك فيها ، ومجنون من يحتقرها .. إن الحياة على الأرض ، تمضي على عجل ، وامتلاك الألوف من الرجال ، لا يميز مالكهم ، ومن يعش عيشة الفضيلة ، فإن نصيبه الخلود .. والفضيلة التي يتحلَّى بها الرجل العادل ، أفضل في عين الله من النور الذي يقدمه الشرِّير قربانا .. على أنه ينبغي مع ذلك للرجل أن يفعل ما ينفع روحه في الحياة الأخرى ، فيقدم القرابين لله . فإن الله يعرف من يفعل له شيئًا. إن الله خلق الناس منه . ، وعلى صورته .. وإنه ليسمعهم حين يبكون ، وحين يشكون وما جعل فيهم رؤساء إلا ليسندوا ظهور الضعفاء منهم .... »

كم هي جامعة ومبينة هذه الفقرة الأخيرة . وكم تبلغ من الجلال والذكاء حين نذكر في أي زمان بعيد ، كانت تُقال .

« ما جعل الله للناس رؤساء ، إلا ليسندوا ظهور الضعفاء منهم » .

إنها تبيان موجز ووافٍ لمهمة الحاكم . . مؤازرة الرجل العادي ، ومنحه فرصته في الحياة .

ويتابع « خيتي » تفكيره ووصيته للحاكم فيقول :

« لا تعاقب في غير ذنب . . ولا تؤذ أحدا
بغير حق . . وإن أفضل الأشياء للحاكم
أن يكون ذا قلب سليم . . . . »

مع توم پاين

صديق البشر

المراجع { المواطن - توم بين - تأليف: هوارد فاست
ترجمة: منير بعلبكي

بين الأصوات الجهيرة الصادقة الخالقة التي ارتفعت عَبْر التاريخ معلنة حقوق الإنسان ارتفع صوت عبقرية باهرة ، استوطنت جسدا منهوكا ، وشخصا بائسا ، اسمه « توم بين » . .

وتوم بين هذا ، إنسان يفوح منه كل أريج الجهد الإنساني البار .

ولا يزال مصدر عبقريته مثار الحيرة لِأُولِي الألباب .

وليت المقام هنا يسمح لي بحديث مفيض عن ذلك الرجل الذي التقيت بفكره المشرق اللافح الجبار في فترة مبكرة من حياتي ، فهزّني كما لم يهزني فكر آخر مثله .

كان شعار جميع الرواد الأفذاذ الذين سبقوه مبشرين بالحرية وبالإخاء الإنساني .

كان شعارهم : « حيث توجد الحرية يوجد وطننا » .

فجاء توم بين نسيج وحده ، ولخص شعاره وعقيدته ، وسلوكه في عبارة أخرى باسلة ، شاهقة عظيمة .

« حيث لا حرية ، فَثَمَّ وطني » . . . ! !

يا للرجل . . ويا للعملاق . . !

ليست الحرية « مِلكية شخصية » ، بحيث تستطيع أن تقول : أنا حر ، لمجرد أنك تستمتع بحريتك الشخصية ، ولكن الحرية تراث إنساني لا يتجزأ ، وهي لا تظفر بوجود حقيقي ، وهناك محاولات تنقصها من أطرافها . . ومن ثم فقد عرف الرجل الرشيد حقًا ، الحر حقًا « توم بين » الطريق الصحيح للاحتفاظ بحريته . .

ألا وهو أن يكون الناس جميعهم أحرارا . .

وهكذا ، فحيث تضار الحرية وتضطهد ، يكون وطنه . ، وتكون أرض المعركة المقدسة التي تناديه إليها تبعاتُ رشده .

وهذا هو دينه .

« إني أومن بإله واحد ، لا أكثر . . . وأطمع في السعادة بعد هذه الحياة . وأعتقد أن الواجبات التي يفرضها الدين هي إقامة العدل ، وحب الرحمة ، والسعي لإسعاد إخواننا . وعلى كل إنسان أن يقوم بفرائض دينه بنفسه . . وإن واجب الحكومة تجاه الدين ، ينبغي أن يقتصر على حماية رجاله المؤمنين به . ولست أعرف عملا آخر

للحكومة تعمله في هذا السبيل . . . . . »

• • •

ويذيع «توم بين» نعي الأرستقراطية الحاكمة ، ويشيد على أنقاضها عالم الشعوب الحرة المسيطرة السعيدة .

إن مهزلة الأرستقراطية ذاهبة في كل بلد . في سبيل ما غبَر من الفروسية ، وإنها لقاضية نحبها لا محالة . وعلى أنصارها أن يرتدوا لجنازتهـــا ثوب الحداد . . لتذهب الأرستقراطية إلى قبرها ، ولتلحق بالحماقات الأخرى . . وليتعزَّ المحزونون . . ! ومتى أمكن أن يقال في أيٍّ من بلاد العالم إن الفقراء سعداء . . وإنه لا فاقة بهم ولا تعاسة . . وإن السجون خالية من المسجونين . . . والشوارع خاليـــة من المتسولين . . . والشيوخ لا يعانون ضنكًا . . والضرائب غير مرهقة . . والعالم الرشيد كله صديق لي . لأني صديقه ونصير سعادته ورخائه . . متى أمكن أن يقال هذا في بلد ما ، فإن لهذا البلد الحق

في أن يتباهى بحكومته ، وبدستوره . . . »

ويرفض « بين » في يقين الحكماء ما تمُن به السلطة – أي سلطة – من تسامح ، ويقول في كلمات من نور .

« ليس التسامح عكس التعصب ، بل هو تلفيق له – وكلاهما تحكم واستبداد . . فالتسامح يزعم لنفسه حق منح الحرية . ، والتعصب يزعم لنفسه حق منع الحرية » !

ويتساءل في ذكاء عظيم :

« لو أن أحدا قدم إلى البرلمان اقتراحا بمشروع قانون يسمح لله أن يتقبل عبادة اليهود أو الأتراك مثلا . . أو مشروع قانون يمنع الله من قبول هذه العبادة . . ألا يكون هذا تجديفا في حق الله وكفرا به . . . ؟؟؟ »

ثم يجيب ويستطرد . .

« كذلكم الضمير الإنساني . . إنه قبس من الله يرفض منّة التسامح . كما يرفض وقاحة التعصب . ويريد فقط . ودائما جميع حريته . . . وجميع سيادته . . »

ويهاجم النظام الملكي . وهو– اي هذا النظام – في عنفوانه الشديد ، ويُحرض عليه الجماهير .

« إن أول من أقام النظام الملكي في العالم
هم الوثنيون . وعنهم نقل اليهود هذا
النظام . . والنظام الملكي ليس سوى اختراع
ابتدعه الشيطان ليخلد بين البشر عبادة
الأصنام ، ويروج بضاعة الوثنية . فقد درج
الوثنيون على تأليه ملوكهم في حياتهم . . . »

ثم زدنا نحن شرورها فجعلناها وراثية ،
فأي امتهان وانتقاص لكرامة البشر . . ؟
وأي سُبّة ، وأي افتيات على الأجيال . . ؟
« مَلَكية وراثية . . ؟ ؟

يا للشرّيرة التي تنجب ورثة للعروش
ليسوا إلا حميرا على رؤوسها تيجان ! ! »

وهو في إيمانه بالحرية ، لا يختلف سلوكه عن قوله .

يذهب إليه « بونابارت » وهو في أوج مجده . . يذهب ساعيا إلى المنزل الذي كان يسكن « بين » غرفة منه متآكلة فوق سطحه

في باريس . . ويسرع إليه رسول الأمبراطورمنبئا إياه أن الأمبراطور بونابارت بالباب يود لقاءه؛ وكان الرسول صاحبة البيت التي أذهلتها المفاجأة ، فيقول لها « توم بين » .

« بونابارت . . ؟؟ وماذا يريد مني هذا الوغد . . ؟؟ ! ! ارجعي وقولي له إن وقت « بين » لا يتسع للقاء الأشرار وقطاع الطرق . . . . ! ! »

• • •

إن بونابارت امبراطور يملأ الأفواه بالذهب ، إذا شاء ؛ ويسوق الرؤوس إلى الفناء متى شاء . . .

إنه يُرغب ويُرهب ، كما يُرغب ويُرهَب أعظم الملوك والأباطرة . . .

ولكنّ « بين » صديق الحرية والإنسان، لا يراه أكثر من سفاح . وقاطع طريق .

اتخذ « بين » هذا الموقف الفذ ، وهو في فرنسا بلد الأمبراطور . يعاني المرض والجوع والتشرد .

ولكنه . . .

ولكنه «توم بين» وكفى . ! !

«أنا أعتقد أن الأشياء كلها هي ملك للناس جميعا بحق الولادة . . وقد تستطيع أن تنتزع الحقوق ، ولكنك لا تستطيع أن تعطي ما هو ملك للناس جميعا . . . . . »

هكذا كان يفلسف «بين» مسألة الحقوق ، وعلى الرغم من أنه حرض الولايات على حرب بريطانيا ودغدغ خرافة الوطن الأم . . وعلّم سكان الولايات أن يدافعوا بأيديهم عن أسلحتهم ، وأن يفكروا في النصر وحده . . بل على الرغم من أنه خاض حرب الاستقلال مع المحاربين . ، فلم يكن شيء أبغض إلى نفسه من الحرب .

«أنا أكره الحرب . إنها أسوأ الطرق لإبقاء الإنسان في هوة الاحتقار ، ولتحويله إلى وحش ضارٍ . لست أكره شيئًا على الأرض أكثر من الحرب . . وإن جميع كنوز العالم فيما أعتقد . ما كان في استطاعتها أن تغريني بتأييد حرب عدوانية لأني أعتبر ذلك قتلا وإزهاق أرواح ، ولكن إذا ما

اقتحم لص بيتي وأحرق ممتلكاتي وأتلفها
وهدد حياتي ، ثم طوقني بإرادته المطلقة ،
فهل يُطلب إلي أن أصدع بأمره . . ؟ ؟
كلا . . وسواء فعل هذا ملك أم سوقة .
من أبناء بلدي ، أو من غير أبناء بلدي ،
شرير فرد ، أم عالَم من الأشرار . . ألا
فليقولوا عني ثائر ؛ فلست أجد في هذا
غضاضة ولكني خليق بأن أعاني بؤس
الشياطين إذا ما جعلت من روحي بغيًا
تدين بالولاء لملك أبله . . بدين . . عنيد . .
متوحش . . وأنتم يا من تحبون الجنس
البشري . . يا من لا تجرؤون على مقاومة
الطغيان فحسب . ، بل وعلى هدم الطغاة
أيضا . . انهضوا . . أتفهمون . . ؟ إن هذا
لنا جميعا – ولأولادنا من بعدنا . . فنحن
الطليعة . وليس الذي ننهض به الآن غير
بناء عالم جديد . . . . »

وكرامة الإنسان المتمثلة في حرية عقله ، وحرية ضميره ،

ورغَد حياته – هي هدف الحياة الإنسانية كلها عند « توم بين » .

« أجل . هذا هو كل ما نحيا من أجله .
وإذا كان للحياة الإنسانية أي معنى فهو
هناك . . في كرامة الكائن البشري . . .
وإن الفقر ليتحدى كل فضيلة ، لأنه يوَرِّث
صاحبه درجة من الانحطاط والتذمر تكتسح
أمامها كل شيْ ، ولا يبقى قائمًا غير هذا
المبدأ : كن . ، أو لا تكن . . . . »

° ° °

وفي ذلك الوقت المبكر يؤمن « بين » بالعالم بوصفه وطنا واحدا لجميع الناس . ، ويؤمن بالبشرية باعتبارها أسرة واحدة ، ويحمل فكره أمانة هذا الإيمان كاملة .

« أنا أحيا للأغلبية في العالم . . والعالم
قَرْيتي . . . . » .

مع جوركي
صديق المستقبل

المراجع:

- مكسيم جوركي : بقلم مكسيم جوركي : تقديم نيناجور فنكل ترجمة-بهيج شعبان
- الأم : تأليف مكسيم جوركي : ترجمة : الدكتور فؤاد أيوب-الأستاذ سهيل أيوب

ولد في الحضيض ، واكتوى بمقابطه ، وتجرع كل غصصه . .

ومع هذا ، عاش والأمل العظيم يملأ فؤاده . والإيمان الوثيق بالمستقبل يحدُو خُطاه . .

وهذه هي السِّمة الكبرى لتفكير « جوركي » . ولقد تختلف معه في كثير أو في قليل مما يفكر فيه . . لكنك لا تستطيع حِوَلا عن إيمانه العظيم بمستقبل البشر ، وموعد البسطاء . .

وكل شيْ يقدسه . إنما هو مقدس من أجل صلته بمستقبل الناس والحياة . .

الأم مقدسة . . لأنها وعاء المستقبل .

« لنرفع عقيرتنا بالمديح للمرأة الأم . . .
المصدر الذي لا ينضب للحياة المنتصرة . »

والأبناء مقدسون . لأنهم طلائع هذا المستقبل .

« أبناؤنا يمشون فوق الأرض . . فوق الأرض
بأسرها من كل حدب وصوب . . أطهر

الناس قلبا ، وأروع الناس فكرا . . يسيرون
قُدما ضد الشر دون ارتعاش . . يدوسون
الكذب تحت أقدامهم القوية . . يوجهون
قواهم كلها نحو غرض واحد – هو العدالة »

ويتابع « جوركي » تمجيده لِلَّذين هم طلائع المستقبل الباسل للحياة النامية .

« إنهم يمشون نحو الانتصار على الألم
البشري ليكنسوا كل بؤس عن وجه البسيطة
وليجهزوا على القبح المخيم على الأرض . .
ولسوف يقضون عليه لقد قال لي أحدهم :
إنهم سيشعلون شمسا جديدة . . ولسوف
يشعلونها بكل تأكيد . . . .
وقال لي : إنهم سيوحِّدون جميع القلوب
المنكسرة . . ولسوف يوحدونها بكل تأكيد »

ويتابع « جوركي » تمجيده للغد ، تمجيده للمستقبل المتمثل في القادمين مع الحياة ، فيقول :

« أبناؤنا يسلكون طريق الحقيقة والعقل . .
يحملون المحبة إلى قلوب البشر . . يغطون

الأرض بسماء جديدة . . وينيرون الأرض
بنار جديدة . . نار الفكر التي لا تنطفئ . .
ومن لهيبها العظيم تنبثق حياة جديدة . .
حياة يولدها الحب العميق للجنس البشري . .
ومن يملك القدرة على إطفاء هذا النور . . ؟ ؟
مَن . . . ؟ ؟ مَن . . . ؟ ؟ إن الحياة كلها
تساند هذا النور ، وتتلهف على انتصاره . .

° ° °

والغد الذي يتوق إليه « جوركي » ويشغل تفكيره غدُ إخاء وسلام وحب .

« إن الأيدي المطبقة اليوم على أعناقنا سوف
تمتدُّ إلينا غدًا في مصافحة أخوية » .

وهذا الغد لن يجيْ بطريقة عفوية . وإنما بالوعي المتزايد بالحقيقة .

« إن وعينا للحقيقة ينمو باطراد ، وبسرعة
متزايدة . . وأفكارنا النامية تتألق في شدة
وإشعاع . . . .
هللوا للمستقبل . . . وهللوا للقلوب الفتية .

فإنها أسرع إمساكا بالحقيقة على الدوام . . »

° ° °

المستقبل . . والحقيقة . .

هذان هما إيمان جوركي ، وفكره ، وشخصيته ، وحياته .

فلنصغ إليه يقول :

« إن الناس يريدون معرفة الحقيقة . .
يريدون ذلك يا عزيزتي . . وكل شيء يجري
أشبه بما في الكنيسة قبل خدمة الصباح في
يوم عيد عظيم . . إن الكاهن لم يأت بعد .
وفي الجو ظلام ، والهدوء موحش . . .
ولكن الناس قد بدأوا يتوافدون . . ها هنا
امرؤ يشعل شمعة أمام الأيقونة ، وهناك
شمعة أخرى تضاء . . وثالثة . . ورابعة . .
إن الظلمة تنزاح شيئًا فشيئًا ، مفسحة المجال
للنور في بيت الله . . وبيت الله ، هو الأرض
بأسرها . . . . »

ويوغل « جوركي » في ولائه للحقيقة وللمستقبل إيغالا يملي عليه أن يرد عنهما كل متشكك مرتاب .

« إنْ فقد أحد الإيمان بانتصار الحقيقة.. إنْ فقد أحد الشجاعة على إعطاء حياته وبذلها من أجل الحقيقة . . إن ارتاب في المستقبل أحد ، وانتابه الخوف من تبعاته ، فليخرج من صفوفنا . . فالذين لم يدركوا رؤيانا عن المستقبل ، لا يملكون الحق في المسير معنا . »

° ° °

والكاتب الذي يبحث عن الحقيقة ، ليضيءْ بها نفسه . ويقدمها للناس . يجمل به ألا يستهدف الإعجاب والشهرة . . بل ربما كان خيره العظيم في الفرار منهما .

يقول « جوركي » :

« ليس من المستحسن أن يكون للكاتب كثير من المعجبين . . وكل رجل ذي عمل مع الجمهور يجب أن يطهر الهواء المحيط به بمطهر الحقيقة . . . .

ويربأ « جوركي » بالفكر . وبالكلمة أن يكونا مجرد وسيلة للتبذخ المنطقي . أو التسلية . ويقسو على القارئ الذي يكون من ذلك الطراز .

« هناك قراء حقيقيون ولكنهم قلائل. أولئك يعتقدون بحرارة أن الإنسان سيد هذه الحياة . . وأن حقه في حرية الفكر والقول حق مقدس . . وأولئك يقرءون بذكاء ، ويفكرون بحرية ، ويقولون لما يقرءون : – هذا حق . . أما ذاك فلا – . . . .

إن الرجل الجيد . الرجل الحي ، هو الذي يبحث دائماً عن شيء ، أما أنتم يا من تعيشون مرتاحي البال ، مطيعين ، جامدين ، تتكاسلون عن التفكير ، وتخافون الحركة . ؛ فكل غايتكم من القراءة الظفر ببضع كلمات تتلمظون بها في المجالس . . . . إن الحياة : هي القصيدة البطولية للإنسان الذي يبحث عن قلبه حتى لو لم يجده . . الإنسان الذي يريد أن يعرف كل شيء حتى لو لم يصل إلى ذلك . . والذي يرجو أن يكون قويا ، حتى لو لم يستطيع التغلب على ضعفه ».

وإيمان جوركي بالمستقبل ، وبالحقيقة ، يحدد له نوع

مقدساته . وهو يقدمها لنا في هذه الكلمات :

« إني أقدس الاستياء الذي يشعر به الإنسان تجاه نفسه ، والذي يدفعه إلى الأفضل دوما . . وأقدس رغبة الإنسان في أن يكنس من الأرض كل ما فيها من حسد ، وشره ، ومرض ، وجريمة ، ورغبته في أن يلغي الحروب ، ويجهز على كل عداوة بين الناس وأقدس عمل الإنسان . . . . . . »

• • •

في عام - ١٨٩٣ - كتب « جوركي » يقول : « لست أحتفظ من ساعة مولدي بأي تذكار. لكن جدتي قالت لي : إنني صرخت عندما أعطيت الروح الإنساني . .

« وأريد أن أعتقد أن صرختي تلك ، كانت صرخة كراهية واحتجاج » . . .

بيد أنه في سنة - ١٩٢٩ - وما حولها ، يقدس كما قرأنا من قبل رغبة الإنسان في أن يطهر الأرض من الكراهية والحسد . . ذلك أن فكره ، كان سائرا لا واقفا ، وكانت وجهته الأمام

دائما . . تماما ، كما قال هو لأصدقاء الحقيقة والمستقبل .

« ليس لنا سوى اتجاه واحد نتحرك فيه ، وهذا الاتجاه ، هو الأمام . . وهو أيضًا أن نعرف مباشرة وبأنفسنا ، قيمة العمل الخالق لكل ما هو جميل ، وكبير ، وثمين في هذا العالم . . . . »

مع اقبال
في فلسفته الدينية

المراجع { تجديد التفكير الدبني في الإسلام
تأليف : محمد إقبال ترجمة : الأستاذ عباس محمود

شاعر الهند وباكستان ، وفيلسوفهما الكبير . يفكر في طبيعة الدين ، وفي تطوره ، وفي وظيفته تفكيرا عاليا ولعلنا لا نخطئ إذا حددنا نقطة انطلاق هذا التفكير لدى إقبال بالموقف الفكري الذي تصوره كلماته الآتية :

« إن السمو إلى مستوى جديد في فهم الإنسان لأصله ، ولمستقبله – من أين جاء ؟ وإلى أين المصير – ؟ هو وحده الذي يكفل له آخر الأمر الفوز على مجتمع يُحرّكه تنافس وحشي ، وعلى حضارة فقدت وحدتها الروحية بما انطوت عليه من صراع بين القيم الدينية والقيم السياسية .... »

ويرى « إقبال » أن الدين من حيث هو « سعي المرء سعيا مقصودا للوصول إلى الغاية النهائية للقيم » حقيقة لا يمكن إنكارها . . كما يقف على رأس الوسائل اللازمة لإخراج الإنسان من مأزقه الماثل .

ويتساءل « إقبال » فيقول :

– « هل الدين أمر ممكن » . . . ؟ ؟ ؟

ويجيب قائلا :

« نستطيع القول بأن الحياة الدينية من الوجهة العامة ، يمكن أن تنقسم إلى ثلاثة أطوار . . طور الإيمان . . وطور الفكر . . وطَوْر الاستكشاف . . . .

ففي الطور الأول تبدو الحياة الدينية صورة من نظام يجب على الأمة بتمامها أن تخضع لأمره خضوعا مطلقا ، ومن غير تحكيم العقل في تفهم مراميه البعيدة ؛ أو غايته القصوى . . وهذا الاتجاه قد يكون له نتائج عظيمة في التاريخ الاجتماعي والسياسي لشعب من الشعوب . لكنه ليس كبير الأثر في نماء الفرد من الناحية الروحية وفي امتداد أفقه . . . .

وفي الطور الثاني ، يتخلى التسليم المطلق عن مكانه للعقل الذي يأخذ في تفهم هذا النظام ، وتفهم المصدر البعيد لسنده . . وفي

هذا الطور تبحث الحياة الدينية عن أصلها في نوع من « الميتافيزيقا » هي نظر في الكون ، متسق اتساقا منطقيا ، ومن فروعه البحث في ذات الله . . . .

وفي الطور الثالث ، يحل علم النفس محل الميتافيزيقا وتزيد الحياة الدينية في طموح الإنسان إلى الاتصال المباشر بالحقيقة القصوى.

وهنا يصبح الدين مسألة تمثل شخصي للحياة والقدرة . ، ويكتسب الفرد شخصية حرة ، لا بالتحلل من قيود الشريعة ولكن بالكشف عن أصلها البعيد في أعماق شعوره . . وصدق الصوفي المسلم الذي يقول – لا يتيسر فهم الكتاب الكريم حتى يتنزَّل على المؤمن ، كما تنزَّل على النبي . . . »

ثم يقول « إقبال » :

« بهذا المعنى ، لهذا الطور الأخير من تطورات الحياة الدينية ، سأستعمل لفظ الدين في الموضوع الذي أحدثكم عنه . . . »

ويظل تساؤل « إقبال » عن إمكان الدين ، قائما . فالدين سعي حثيث إلى خير الإنسان ، ما في ذلك ريب . ولكن إنسان العصر الحديث الذي نعيشه بدأ من عهد بعيد يتكشف خيره ومصيره في القوانين الثابتة التي كشفها العلم : والتي هي بدورها دعامات الكون ، والحياة .

وإذا كانت النظرة التجريبية هي أساس التفكير اليوم فكيف يكون الدين ، وهو نظرة غيبية ، أمرا ممكنا .

هنا يواجه « إقبال » هذا التساؤل في وضوح وبَسالة فيقول :

« الدين في جوهره تجربة ، بل لقد أدر
أنه لا بد من أن تكون التجربة أساسه وقاع
قبل أن يتنبه العلم إلى اصطناع هذا الر
بوقت طويل . . . .
ذلك أن الدين سعي صادق صحيح
يستهدف توضيح الشعور الإنساني ، وهو
بوصفه هذا ، يمحص مستواه في التجربة
مثلما يمحص المذهب الطبيعي مستوى
تجربته . . . . »

ويتابع «إقبال» حجته متسائلا، ومجيبا: .

«هل المستوى العادي للتجربة، هو وحده الذي يفيد العلم... ؟؟؟

لم لا تكون هناك مستويات أخرى للتجربة الإنسانية، قابلة لأن تنظم وتنسَّق في مراتب أخرى من المكان والزمان. مستويات لا يلعب فيها تصور المعنى الكلي وتحليله نفس الدور الذي يلعبانه في تجربتنا العادية. ؟ إن كون التجربة الدينية فردية لا تنتظم الكل، لا يعني أنها عبث أو باطل.، بل إن استحالة نقلها إلى غير صاحبها يعطينا المفتاح لمعرفة الطبيعة الأساسية للذات – ذلك أننا في حياتنا اليومية والاجتماعية نعيش ونتحرك كما لو كنا في معزل عن الغير، أعني أننا لا نبالي بالنفاذ إلى أعماق الفردية البشرية، ونعتبر الناس مجرد وظائف ودلالات، ونعرفهم من نواحي شخصيتهم التي يمكن أن نتناولها بالتصور. بينما

التجربة الدينية تستهدف كشف الذات عن طريق اتصالها بذات الحق العليا . . والتجربة المفضية لهذا الكشف لا تكون أمرا عقليا قابلا للتصور، بل هي حقيقة حيوية ؛ نزعة ناشئة عن تحول بيولوجي داخلي لا يمكن اقتناصه في شباك المقولات المنطقية ، فهي

لا تستطيع أن تندمج إلا في قوة صانعة للعالم أو محركة له . وفي هذه الصورة وحدها يتسنًّى لهذه التجربة البريئة من الزمان أن تنتشر في حركة الزمان ، وأن تكشف عن ذاتها أمام عين التاريخ . . ويبدو أن طريقة إدراك الحقيقة بواسطة تصور المعاني الكلية ، ليست الطريقة الوحيدة ، بل ولا المثلى . . فالعلم لا يبالي إذا كان الالكترون الذي يقول به ذاتا حقيقية أم لا . . ربما كان رمزا . أو عرفا لا غير . . أما الدين وهو في جوهره حال من أحوال الحياة الواقعة . ويتطلب في الذات التي ستتمثل حياته وتجربته أن يكون لها موقف ثابت إزاء الحق ؛ وأن

يكون عملها اتصالا قويا فعّالا بالحقيقة –
الدين بهذه المثابة يمثل الطريقة الجدّية
للبحث عن الحقيقة . . . . »

طبيعي أن « إقبال » يعني هنا الحقيقة الروحية . . الحقيقة الميتافيزيقية . . وهو لا يرى في فردية التجربة الدينية ما يضائل من قيمتها – كما قرأنا في كلماته السالفة ، بل على العكس ، يمكن أن تكون فردية هذه التجربة تزكية لقيمتها ودَعمًا لها . . على أنه يعود ويقول بإمكان تحويل هذه التجربة الفردية إلى عمل جَماعي .

« إذا أخذ الآخرون يمرون في حياتهم
بنفس ذلك العمل لكي يكشفوا لأنفسهم
صلاحيته من حيث هو وسيلة لإدراك الحق. »

ثم يقول « إقبال » .

« هذه التجارب طبيعية تماما . ، مثلها
في هذا مثل تجاربنا المألوفة . ودليل ذلك
هو ما لهذه التجارب من قيمة معرفية وعلمية
لمن يمارسها . بل هناك ما هو أهم من هذا –
وهو قدرتها على تركيز قُوى الذات تركيزا

يكسبها شخصية جديدة متفوقة . . والرأي
القائل بأن مثل هذه التجارب انفعالات
عصبية ، أو غامضة ، لن يفصل نهائيًا
في دلالتها أو قيمتها . . وإذا كان النظر
فيما وراء الطبيعيات ممكنا غير ممتنع ،
فمن الواجب أن نواجه هذا الامكان في
شجاعة ، ولو أخرجَنا ذلك عن مألوف
وسائلنا في الحياة وفي التفكير ، أو مال
بنا إلى تعديل هذه الوسائل . . . . »

• • •

ولكن إذا كان الدين كما يراه إقبال يمثل في طوره الأخير ، نشاطا صوفيا يستهدف رؤية الحقيقة ، والتفوق على كل ضعف بشري . فهل يعني ذلك الفرار من العالم ومن تبعات العيش مع الجماعة . . ؟ ؟ هل يعني الرهبنة والاعتزال . . ؟ ؟ هل يعني احتقار هذه الحياة الدنيا ، والاعراض عنها . . ؟ ؟ ؟

هنا يطالعنا « إقبال » بفكر له عنفوان ، فيقول :

« لست أتحدث عن طريقة خفية خاصة
من طرق المعرفة . بل أريد أن أركـــز

انتباهكم على تجربة إنسانية حقة .

لها من ورائها تاريخ ، ومن أمامها مستقبل .
ولقد كشف التصوف من غير شك عن آفاق
جديدة من آفاق النفس باتخاذه هذه التجربة
الإنسانية موضوعا لدراسة خاصة؛ وأحب
أن أقول لكم إن العقل العصري بما له من
عادات التفكير الواقعي يتطلب معرفة الله
معرفة حية محسوسة . . . . »

ويرى « إقبال » أن مجرد رغبتنا الصادقة في إدراك الحقيقة ،
دين وتصوف وصلاة فيقول :

« إن الصلاة يجب أن يُنظر إليها على أنها
تكملة ضرورية للنشاط العقلي لمن يتأمل
في الطبيعة . . . .

وملاحظة الطبيعة ملاحظة علمية تجعلنا
على اتصال وثيق بسلوك الحقيقة . . وكل
طلب للمعرفة ، هو في جوهره صورة من
صور الصلاة . . والمتأمل في الطبيعة تأملا
علميًا ، هو نوع من الصوفي الباحث . .

وتأمله هذا ، صلاة . . . والصلاة ، سواء
كانت صلاة فرد أم جماعة ، تعبير عن
مَكْنُونِ شوق الإنسان إلى من يستجيب
لدعائه في سكون العالم المخيف . . . . . . »

والمعرفة عند « إقبال » ليست هي المعرفة الدينية فحسب . .
لا ، وإنه ليقول :

« ليس أمامنا من سبيل سوى أن نتناول
المعرفة العصرية بروح الإجلال والاستقلال
والبعد عن الهوى . وأن نقدر تعاليم الإسلام
في ضوء هذه المعرفة ، ولو أدَّى ذلك بنا
إلى مخالفة المتقدمين . . . . »

ويدعو « إقبال » إلى احترام الطبيعة والتاريخ كمصدرين من
مصادر العلم ويشيد بهما – بيد أنه يطالب الآخرين باحترام
مصدر ثالث ، هو رياضة الباطن . . أي التجربة الدينية الصادقة ،
والعمل الصوفي العظيم .

يقول إقبال :

إن المعرفة يجب أن تبدأ بالمحسوس ،
وقدرة العقل على تحصيل المحسوس وسلطانه

عليه هو الذي ييسر له الانتقال من المحسوس إلى غير المحسوس. ولقد عُني القرآن بأن يفتح أعيننا على الشمس، والقمر، وامتداد الظل، واختلاف الليل والنهار، واختلاف الألسنة والألوان، وتداول الأيام بين الناس. وهي دعوة إلى عالم الحس، كي يدرس ويمحص ....»

ثم يوضح إقبال أهمية التجربة الدينية أو ما يُسمى «رياضة الباطن» بالنسبة للمعرفة الحسيّة فيقول:

«لكن الكون بوصفه مجموعة من موجودات متناهية، يتمثل لنا كأنه جزيرة قائمة في خلاء محض.. والزمان باعتباره سلسلة من لحظات منعزل بعضها عن بعض، هو عَدم بالنسبة إلى الكون واعتبار الكون كذلك لا يؤدي بالعقل المتأمل إلى شيء.. والتفكير في جعل حد للفراغ وللزمان المدركين، يبعث في العقل الحيرة والتردد؛ فالمتناهي بوصفه متناهيًا يعوق حركة العقل؛ فيجب

على العقل أن يتغلب على فكرة الزمان المتجدد ، وعلى الخلاء المطلق في الفراغ المدْرك لكي يستطيع أن يجاوز حدود المتناهي . . يقول القرآن الكريم – وأن إلى ربك المنتهَى – وهذه الآية تنطوي على فكرة من أعمق الفكر التي وردت في القرآن . . لأنها تشير على وجه قاطع إلى أن المنتهى الأخير ، يجب ألا يُبحث عنه في حركة الأفلاك . وإنما يُبحث عنه في وجود كوني روحاني لا نهاية له . . . . »

وإذا نحن سألنا « إقبالا » عن طريقة إدراك هذا المنتهى الذي تمثل فيه الحقيقة النهائية ، والكبرى ، أجابنا إجابة تكشف عن فهمه السديد للتصوف ، والتجربة الدينية فيقول :

« يتحقق وجود هذه الحقيقة في نشاطها الدنيوي . . وإن الروح لتجد فرصتها في الطبيعي ، والمادي ، والدنيوي . . فكل ما هو دنيوي إذن ، طاهر وديني في جذور وجوده . . . .

وأعظم خدمة أدَّاها التفكير العصري إلى الدين ، تمحيص ما نسميه ماديا أوطبيعيا . . »

ليس ثمة دنيا دنسة . . وكل هذه الكثرة من الكائنات المادية إنما هي مجالٌ تحقق الروح وجودها فيه . فالكل أرض طهور . . . .

ولقد صور النبي هذا المعنى أجمل تصوير حين قال – جعلت لنا الأرض مسجدًا . . »

• • •

هكذا ينظر « إقبال » إلى المحسوس ، وإلى المادة كتربة صالحة ، وربما وحيدة للتجربة الدينية . . . وهو يفرق بين التجربة الدينية في المراحل المبكرة من تطور البشرية ، وبينها اليوم . . فالتجربة الدينية قديما ، كانت من عمل التفكير المجرد . . أما التجربة الحديثة فأنها تعتمد على مصادر للمعرفة تلائم وجهتها الجديدة ، وتعمل في ظل العقل الاستدلالي الذي يرى « إقبال » أن من واجبنا مساندته ومؤازرته وكبت كل أسلوب للمعرفة لا يعتمد عليه .

ومن رأي « إقبال » أن « العقل الاستدلالي » ولد يوم ولد

« الإسلام » ، ويشرح لنا معنى أن « محمدًا » عليه السلام خاتم النبيين ، فيقول :

« إن النبوة في الإسلام لتبلغ كمالها الأخير في إدراك الحاجة إلى إنهاء النبوة نفسها . . . »

« وهو أمر ينطوي على إدراكها العميق لاستحالة بقاء الوجود معتمدا إلى الأبد على مِقْود يُقادُ منه . ، وأن الإنسان لكي يحصل كمال معرفته لنفسه ينبغي أن يُتْرك ليعتمد في النهاية على وسائله هو . . . . . .

« إن أبطال الإسلام للرهبنة ، ومناشدة القرآن للعقل وللتجربة على الدوام ، وإصراره على أن النظر في الكون والوقوف على أخبار الأولين من مصادر المعرفة الإنسانية ، كل ذلك صور مختلفة لميلاد العقل الاستدلالي

« على أن ذلك لا يعني إنهاء التجربة الدينية أو إحلال العقل محل الشعور إحلالا كاملا ، فمثل هذا غير ممكن وغير مرغوب . . إنما يعني إخضاع التجربة الدينية للنقد والتمحيص ،

كما أنه يفتح سبُلاً جديدة للمعرفة في ميدان
هذه التجربة . . . . »

والتجربة الدينية عند إقبال ، نشاط حر . . أي أن صاحبها يمارسها مريدًا لها دون أن يسوقه إليها أو يتحكم فيه مؤثر خارجي .

فمذهب « إقبال » أن كل شيء موجود يحمل قانونه ، ولا يبغي عنه حِوَلاً . . وهذا هو مفهوم القدَر عنده ، ويفسِّر الآية الكريمة « إنا كل شيء خلقناه بقدَر » فيقول :

« تقدير شيء لا يعني التحكم فيه من خارج ،
بل يعني القوة الكامنة التي تحقق وجود ذلك
الشيء ، ويعني ممكناته التي تقبل التحقق ، والتي
تكمن في أعماق طبيعته وتحقق وجودها في
الخارج بالتتالي دون أي إحساس بإكراه
من وسيط خارجي ؛ وليس هناك حوادث
تامة التكون ، تسقط واحدة بعد أخرى ،
كما تسقط حبات الرمل من الساعة الرملية ؛
والواقع أن كل نشاط خالق ، هو نشاط
حر . . . . »

إن التجربة الدينية عند « إقبال » تستهدف رؤية الحقيقة

ومعانقتها ، وكل حجْر على مستقبل الحقيقة مرفوض من الله ، ومن الإنسان . ولهذا يذهب فيلسوفنا إلى ضرورة فتح أبواب المستقبل أمام الحقيقة حتى تظلّ حرة وخالقة .

ذلك أن مهمة التجربة الدينية عنده ليست قاصرة على تزويدنا بالمعرفة والادراك . بل قبل ذلك تزويدنا بمواقف ثابتة مع الحق والفضيلة .

يقول « إقبال » :

« ليس منتهى غاية الذات أن ترى شيئًا ،
بل أن تصير شيئًا . . والجهد الذي تبذُله
الذات لكي تصير شيئًا هو الذي يكشف
لها فرصتها الأخيرة لشحذ موضوعيتها ،
وبلوغ أعماقٍ أبعد ، في ذاتيتها . . . . . . »

« عندئذ ، ترى الدليل على حقيقتها ، في
قول – كانْت – أنا أقْدر ، لا في قول
– ديكارت – أنا أفكر . . واللحظة التي
تعرف الذات فيها ذلك ، هي اللحظة التي
تجد فيها السعادة العظمى ، وتجتاز بنجاح ،
أكبر امتحان لها . . . . »

مع فرويد
في مجاهل النفس

تأليف: إدجار بيس

المراجع { فرويد

ترجمة : الأستاذ تيسير شيخ الأرض

الرائد المثابر لعلم النفس . والرجل الذي نذر حياته لتحرير هذا العلم من المغالطة والوهم ، كما نذرها لتبديد الغيوم والحُجب التي تطمس معالم الحقيقة وتخفيها ، يتحدث الآن إلينا . .

لقد أعطى فرويد « اللاشعور » مضمونًا جادا ومقنعًا حين قال :

« إن فرضية اللاشعور ، ضرورية ومشروعة . وقد قامت البراهين على وجود هذا اللاشعور بصور متعددة. إن وجوده ضروري لأن المعلومات التي يقدمها لنا الشعور تظل ناقصة . . . .

إننا نلاحظ في معظم الأحيان بعض الأفعال النفسية التي تتطلب لكي تصبح مفهومة أفعالا أخرى ، لا يستطيع الشعور أن يقدم لنا أي معلومات عنها . وإن تجربتنا اليومية الشخصية تتيح لنا أن نلاحظ وجود أفكار يظل أصلها مجهولا لدينا ونتائج فكرية

تظل كيفية الوصول إليها غامضة بالنسبة
إلينا . . . . »

وهذا – اللاشعور – خليق باهتمامات فرويد النبيلة ، لما لَه من فاعلية هائلة في حياة البشر ، ولأنه – بصفة خاصة – مستقر القوى المكبوتة المضطهدة التي تتربص بنا ، وتترصد لنا .

ولقد كان فكر « فرويد » وهو يتعقب الكبت ويمسك بخناقه ، واحدا كبيرا من أبطال المعرفة الإنسانية عبّر القرون .

لنقرأ له هذه السطور :

« إن الطفل يتحرك بالغريزة ، بيد أن هذه الغريزة لا تلبث أن تدخل في سن مبكرة في تناقض مع متطلبات الحياة الاجتماعية . . والميول العدوانية ، والجنسية ، هي أول ما يكبحه الوسط العائلي الذي يمثل متطلبات المجتمع وزواجره . . . . »

« إن إرادة الطفل تصطدم في كل لحظة ، وفي كل مناسبة بإرادة عليا تصرف بقوة إرادة ذويه ومربيه ، وبهذه الصورة لا تستطيع الميول الغريزية أن تسير حسب

هواها وبما أن كل ميل يظهر وله غاية نوعية ؛
فإن نتيجة ذلك إلزام الطفل بالتخلي عن
هذه الغاية. وفي عملية الكبت هذه ، نجد
الإرادة ، والتصميم ، والاختيار الحر ؛
قد نُبذت جميعا . . . . »

ويكشف فرويد عن مصير الميول المكبوتة قائلا :

« إنهـــا لا تتلاشى ، بل تبقى حية في
اللاشعور وتظل مستمرة في نموها . . . . . »

كما يكشف عن نوعها ، فيقول :

« إن الأمر يتعلق بصورة دائمة تقريبا
بالميول الجنسية . . . . »

إذن هو لا يقصر الميول المكبوتة على الجنس ، كما توهم كثيرون ، وإنما يعطي الجنس المكان الأول، وهذا أقرب إلى الحق ، سيما حين نذكر أن الكبت ثمرة التحريم والمنع والحظر . . وأنه ليس ثمة من غرائز البشر غريزة نالت من المنع والحظر والتحريم والمقاومة ، مثل ما نالت غريزة الجنس ، والميول الجنسية .

وهكذا يكشف فرويد طبيعة وحقيقة الاضطرابات الجنسية قائلا :

« إنها نتيجة توقف نمو الحياة الجنسية في مرحلة من مراحل الطفولة ، ونتيجة نُمُوّ مبالغ فيه بالنسبة لميول أخرى ، مما يفوت على ميولنا فرصة الانصهار والتكافؤ . . . . . »

ويتبين فرويد الحياة الجنسية المستقيمة ثم يصفها بقوله :

« إن الصفة السويَّة للحياة الجنسية ، لا تكون إلا بتيّارين يتجهان نحو الموضوع والهدف الجنسيين ، أحدهما تيار العاطفة ، وثانيهما تيار الشهوة الحسيّة . . . . »

ولما كان الكبت يمثل « حربا أهلية » يخوضها الإنسان ضد نفسه ، ويستنفد خلالها طاقته وقوته التي أعطيت له ليواجه بها الحياة ، فإن « فرويد » بوضعه أوزار هذه الحرب يكون مستحقًا للقب « منقذ » ولكن ، كيف يُنهي فرويد هذه الحرب . . ؟ ؟

إنه ينادي باحترام الغرائز وعلى رأسها غريزة الجنس ، ويكشف عن الصداقة العريقة التي بيننا وبين غرائزنا . .

إنها ليست شياطين كما كنا نظن ، ولكنها قوانا التي نتحرك بها ونعمل .

ومن ثم حذرنا من الدخول في معركة مع ميولنا ، ودعا إلى

التفاهم معها ، والعمل على تحويلها وتعليتها .

ومن هذه النقطة ينطلق تفكير فرويد . . إلى موضع جدّ خطير. وهو إمكان قيام الأخلاق على أساس عقلي محض . .

والمعيار الوحيد عنده لهذه الأخلاق القائمة على أساس عقلي ، هو المنفعة الاجتماعية ، لا المنفعة الشخصية ، أي الشروط التي تحقق للجماعة الإنسانية نموّها وخيرها .

يقول فرويد :

« إن الأبحاث السيكولوجية ، وبصورة أخص ، الملاحظة التحليلية للنفس ، تظهر لنا أن أعمق ما في الإنسان إنما يتألف من ميول ذات طبيعة بسيطة . . وأن هذه الميول واحدة عند جميع البشر ، تستهدف إرضاء بعض الحاجات الأولية . . . وليست هذه الميول حسنة ولا سيئة في ذاتها ، إنما نحن الذين نصنّفها ومظاهرَها تحت هذين الوصفين ، متأثرين في هذا بالعلاقات التي يتطلبها قيام الجماعة الإنسانية . . . . . . »

ولعلّ خير صورة للتكيُّف الأخلاقي عند فرويد ، هي تلك

التي لا تبالغ في الحرمان ولا تبالغ في الإشباع . . فإرضاء جميع الميول الغريزية إرضاء غير محدود ينتج من الألم مثل أو أكثر مما يسبب من لَذة . . والحب العظيم الصادق من خير ما تظفر به الحياة السوية .

يقول فرويد :

« إنني أضع نصب عيني فهما للحياة ، يتخذ الحب مركزا . ويحسب أن كل فرح إنما يأتي من أن يكون المرء محبا ، ومحبوبا . .

وإن هذا الاتجاه النفسي ليبدو مألوفا لنا جميعًا . فأحد أشكال الحب ، ونعني به الحب الجنسي ، يجعلنا نشعر بلذة مسيطرة – أجمل وأشد ما يكون الشعور ، وهو بهذا يقدم لنا أكثر نماذج طموحنا إلى السعادة أصالة . . . . »

من أجل ذلك كانت الحرب العالمية الأولى فجيعة مرهقة لفرويد . . لأنها كانت تمزيقًا عنيفا ورجيما لأوصال الحب الذي يطمع فيه لبني الإنسان . . ولقد كتب يومها يقول :

« إن الحرب التي لم نشأ أن نعتقد بحدوثها

قد انفجرت ؛ فكان انفجارها مصدرًا للخيبة . . . .

وإن ما ظهر من ضعف خُلقي في سلوك بعض الدول تجاه جيرانها متخلية عما كانت تزعمه لنفسها من معايير أخلاقية . وهذه الوحشية التي اتصف بها سلوك الأفراد الذين يمثلون للأسف أعلى حضارة إنسانية . . .

هذا ، وذاك . كانا مثار شعور كبير بالخيبة والألم . . . . »

• • •

وهذه الكلمات التي سفَّه بها فرويد وحشية الحرب ، تقودنا إلى ضرب من التفكير العالي يدرك به صاحبه وظيفة الحضارة .

ففرويد يتصور الحضارة تصورا جليلا ، وينفي عنها جميع المتطفلين عليها ، وهم عنده يمثلون الأغلبية الكبرى .

لماذا . . ؟ ؟

لأن المتحضر عنده ليس من يعيش في مجتمع متحضر ، بل هو من يحترم الحضارة ويهبها كل ولائه وطاعته .

« إن هذه الأغلبية ليست متحضرة ، بمعنى أن الأفراد الذين تتألف منهم لا يحترمون أشكال الحضارة إلا بصورة خارجية تماما ، وبقـــدر مـــا يجبرهم على ذلك الضغط الاجتماعي . . . . »

لهذا يعزّي « فرويد » نفسه في وحشية الناس خلال الحرب ، بأسلوب لا يخلو من التهكم الجاد ، فيقول :

« إن مواطنينا في العالم الذين ارتكبوا تلك الأعمال ، لم يسقطوا في الواقع إلى درك بعيد كما كنا نظن . . وذلك لسبب بسيط ، هو أنهم لم يكونوا في مستوى رفيع بقدر ما كنا نتصور . . ! ! »

وفرويد لا يحترم الحضارة ، ولا يؤمن بها إيمان العوام . . بل إيمان الصديق العاقل ، وأفضل مظهر لإيمانه بها يتجَلى في نقده لها ، وتمحيصه الشديد لكافة وجوه نشاطها .

وربما يكون فرويد قد غادر الدنيا ، قبل أن يشهد الحضارة التي يرضى عنها ، ويعتبرها جديرة باسمها ، وقد تكون السهام الكثيرة التي صوبها إلى الحضارة الاوربية بادية النقمة على الحضارة

كلها – إلا أن ذلك كله لا ينال من إيمانه العميق بالحضارة الجادة التي تصحح نفسها .

ما أهم مهام هذه الحضارة عند فرويد . . ؟؟

إنه يجيب :

« هي إيجاد توازن ملائم بين احتياجات الفرد ، ومطالب الجماعة . على أن يكون هذا التوازن ذا طبيعة تمكنه من ضمان السعادة لجميع البشر. . . . . »

مع ديهاميل

فى دفاعه عن الأدب

تأليف :الدكتور جورج ديهاميل

المراجع { دفاع عن الأدب :

ترجمة : الدكتور محمد مندور

كان واحدًا من جماعة ، اتخذت شعارها أبيات « رابليه » .

« هنـــا ادخلوا . . »

« ادخلوا على الرحب والسَّعة »

« ادخلوا ، تجدوا مأوًى حَصِينا »

« يقي من الخطأ الأثيم »

« الذي طالما احتال بأسلوبه الكاذب »

« فسمَّم العـــالم »

« هنا ، ادخلوا لِتدْعمَ الإيمان العميق »

• • •

ترى أي إيمان كانت هذه الجماعة تدعمه ، ومعها الكاتب الفرنسي الكبير « ديهاميل » . . ؟ ؟

إنه بادئ بدء ؛ الإيمان بالكلمة ، وبالفكر ، وبالأدب .

وعند « ديهاميل » أن هذا النوع من الإيمان ، لا يستطيع أحد أن يمنحه الآخرين ؛ مثلما يستطيع ذلك الكاتب والأديب اللذيْن أخلصا لفنهما كل الإخلاص ، . . وهؤلاء عنده سادة الأرض حقًا .

« نحن – إذا أردتم – نملك العالم بأجمعه
وفي هذا التملك سنجد خلاص أرواحنا
نحن نملك – مثلا – هذا الشخص المجهول
الذي يسير في الطريق . . . .

« نملك لون غابة الصنوبر التي تلوح كأشواك
في الأفق الجنوبي . . نملك فكرة بتهوفن ،
وأحلام ليالينا . . نملك صورة المكـــان ،
وذكرياتنا ، ومستقبلنا ، ورائحة الأشياء
ووزنها . .

« نملك ألمنا في هذه اللحظة . . ونملك
آلافا وآلافا من الأشياء الأخرى . . . . »

• • •

وأول شيء مقدس في مملكة الأدب هذه هو « روح الكاتب والأديب » .

يقول « ديهاميل » :

« أن نفكر في الروح بمثابرة واحترام . ،
وأن نزيدها غنًى وثراء بلا انقطاع.
في هذا ستكون قداستنا. . . . . . . »

وشَرُّ أعداء هذا الروح عند ديهاميل هو النجاح . . النجاح التجاري الذي يجرف الكاتب والأديب ، ويلقي بهما بعيدا عن وجودهما الحق الصحيح . وإنه ليستشهد في تحذيره الكاتب من النجاح بعبارة « لوجان برسان سميث » .

« العبودية والانحطاط جزاء وفاق للنجاح – والكتاب الذي يروج ، قبر مذهَّب للموهبة غير الممتازة » . .

والحق أن النجاح ضروري لشحذ قُوى الحياة . ، وديهاميل لا ريب يدرك هذا : لكنه يرى أن شيطان الكم ، وأن الطرق الملتوية الخبيثة التي يقوم عليها النجاح التجاري في القرن العشرين . . أكثر من أن يحتملا ، يُتسامح معهما .

من أجل هذا يقول :

« لو غامر أحد أولادي يوما واحترف الأدب
وسألني أن أنصحه ، لما قلت له غير هذه
العبارة – احذر النجاح . . . .
« وسأفكر وأنا ألقي إليه بهذه النصيحة في
النجاح الملتوي المخاتل . الذي يثني يوما
بعد يوم من مدى أهداف الرجل ،

ويقصُّ أجنحته حتى يَزُجَّ بقدميه في رفق
إلى مباذل المجد . . . سأفكر في هذا النجاح
الذي ينال من الشجاعة الحقيقية برُضاب
قبلاته السامة . . . . »

« أجل . . احذر النجاح . ؛ فكل نجاح ،
باب يغلق . وكل نجاح أمل يكبّل ، وكل
نجاح مستقبل يُقبر . . وكل نجاح عدول

« نعم . . احذر النجاح . احذر هجماته ،
واحذر مكايده . . النجاح تجربة مضنية ،
يجب ألا نخشاها ، وأيضاً يجب ألّا نسعى
إليها . . . .

إذا كانت لك رغبة في النجاح ، فاحذر
أن تكون رغبتك اندفاع السغبان وإذا
كنت تحتقر النجاح ، فاحذر أن يكون في
احتقارك نبرة الحقد . . وفي كلمة واحدة . .
احذر النجاح . . . . »

° ° °

إن خوف « ديهاميل » من النجاح بيِّن البواعث واضح

الأسباب . فالكاتب والفنان ، بصفة خاصة ، كثيرا ما يجرفهما النجاح بعيدا ، بعيدا عن الأصالة والخَلْق . . .

وشيئًا فشيئًا يطرحانَ عن كاهليهما كل جهد يتطلبه التجويد والإتقان – معتمدَيْن على التوقيع الذي سيُذَيِّل به عملهما الفني والذي يحمل اسما ناجحا ولامعا .

ومثل هذه « اللامبالاة » لا تنجب أعمالا ضحلة ، فحسب ، بل إنها تصيب الموهبة بالاضمحلال ، وتلحق بها الأذى والضر .

إن النجاح ، لا يكف نباحه وراء الكاتب دوما . . فهو باستمرار يطالبه بتموين السوق الرائجة . . والعمل الفني لم يكن يوما ما سلعة تصنع على عَجَل ، وتقدَّم عند الطلب – وهذا ، ما أخاف « ديهاميل » من النجاح التجاري المقوِّض . .

يقول « ديهاميل » :

« إن الأفكار التي يمكن أن تكون مادة لعمل فني . تحتاج دائما إلى نضوج بطيْ . فهي تولَد فينا كالنُطَف ، وتبقى زمنا طويلا بغير حِراك . . ثم نحس شيئا فشيئا أنها تتغذى وتأخذ في التكون . . وأخيرا تبدأ الحركة المضنية . ، ومع هذا يمضي

زمان قبل أن يتهيأ الكائن للمجيء إلى الضوء ، فتبدأ عملية الوضع الشَّاقة . ونحن نستطيع أن نفسد كل شيء – ولكننا إذا انتظرنا حتى نهاية الحمل ، فستكون لدينا الفرصة لأن نخرج إلى العالم كائنا قابلا للحياة ، كاملا حسن التكوين . . . . »

هذا بعض ما يخشاه ديهاميل من النجاح . .

إجهاض الأفكار ، وابتسارها تلبية لمطالب السوق الناجحة .

° ° °

ويشيد « ديهاميل » بروح الفكاهة عند الفنان والكاتب . . إنها التهلل المشرق الذي يفتح العقول والأفئدة للعمل الفني والأدبي . .

ولكن روح الفكاهة شيء مختلف تماما عن الهزل .

لنقرأ له هذه الكلمات المفكرة :

« روح الفكاهة نوع من التغيير في الضياء يمكّننا من رؤية الشيء في جميع مظاهره – ولقد يكون بين بعض تلك المظاهر تناقض

بفضله تكتسب تلك المظاهر دلالتها . . . . . .

إن في روح الفكاهة نوعا من الخَفَر والتحفظ ، وامتلاك للنفس – لا يعرفه الهزل الصريح – ولكنها حين تصبح مذهبا . تنحرف عن سبيلها ، وتخطئ هدفها . إذ لا يجوز أن تظهر إلا تحت ضغط الملابسات . . . .

« والهزل عزمه منعقد منذ البداية على إثارة الضحك . . بينما الفكاهة لا تضحك دائما ، وإن أضحكت فذلك لأنها لا تستطيع أن تتجنب الضحك . . . .

« روح الفكاهة استعداد طبيعي في نفس صادقة . لا تصدف عن أن تعرف كل ما ترى ، وأن تقول كل ما تعرف . . . . . . »

إننا في ضياء هذه الكلمات ، نستطيع أن ندرك الفارق البعيد بين روح الفكاهة التي تفلسف الأشياء ، وتنفذ في يسر إلى أعماقها . وبين الهزل الرخيص الذي لا فنَّ فيه . ولا نبوغ له . .

° ° °

والكتاب عند « ديهاميل » صديق غال ، عزيز ، جليل .

بل هو خير الأصدقاء .

وهو « وعاء » الثقافة الذي يصونها عن التبدد والضياع .

وإنه ليتساءل :

« إلامَ يصير العالم لو علِق فجأة بالورق
مرض جديد يحيل كل المكاتب ترابا . . ؟ :
يخيل إليَّ أن الإنسانية بفقدان مكاتبها ،
لن تفقد من كنوزها الفنية أو من تراثها
الروحي فحسب ، بل ستفقد أيضا – وبوجه
خاص – وسائل حياتها .

« كل مكتبة ، هي قبل كل شيء مجموعة
وسائل ومناهج . . . . »

« هي ذلك المكان الجليل الذي يحتفظ فيه
الرجـــال بتجاربهم ، وأحـــاسيسهم ،
واكتشافاتهم ، ومشروعاتهم – ولو أننا فقدنا
دفعة واحدة كل تلك الكتب التي ازدهرت
بها حضارتنا ، لما استطعنا أن نبني طائرة ،
أو نربي حيوانات ، أو نستحضر منتجاتنا
الكيماوية . ولوجدنا مشقة كبيرة في استخدام

ملكاتنا . . ولن تكون تصرفاتنا عندئذ إلا تصرفات وحوش تعسة . . . . »

وقد يسأل سائل « ديهاميل » ، أليست الصحافة سبيلا مَهدًا للثقافة . . ؟؟

وهنا يجيب :

« تستطيع الصحافة أن تكون في أيامنا وسيلة مدهشة للمعرفة وذلك على فرض أنها – وأني لأعترف بأنه فرض مسرف – تستطيع أن تتحرر من رِقّ المادة ، ورِق السياسة . . وعلى فرض – وهذا الفرض لا يقل هذيانا عن سابقه – أقول على فرض أن تتخلص من الأهواء الشخصية ، وأن تخصص كل مجهوداتها لأداء واجباتها . . . »

« ولو صح ذلك لاستطاعت أن تلعب دورا هاما في تثقيف الجمهور . وهي تملك كل ما يمكن تصوره من وسائل . ، كما أنها تتمتع لدى الجمهور بثقة متينة ، فهي إذن تستطيع أن تصوغه وتقوده وتسمو به .

بل وتثقفه إلى حد ما ، أو على الأقل تدفعه إلى الكتاب الذي هو أداة كل ثقافة حقيقية .»

* * *

هذه بعض أفكار « ديهاميل » الذكية ، عن الأدب ، ومشاكله

مع إمرسون
فى تفكيره المفرد

المرجع { مختارات من إمرسون —
ترجمة الأستاذ محمود محمود

الوداعة القوية ، والقوة الوديعة ، تمثّلتا في هذا المفكر اللمّاح الودود ، على نَسَق باهر .

وقد لا نجد في حكمته المشِعَّة أغوار العقل الفلسفي العميق . . بيد أننا نلحظ فيها البديهة المشرقة الذكية التي تبلغ هدفها من أقرب طريق .

وشفافِيَةُ فكره ، تمنحه تلك التغريدة الحلوة العذبة .

فلنصغ لبعض تلك التغاريد :

من هو المعلم عند إمرسون ؟ ؟

« إن الروح وحدها تستطيع أن تعلمّ ، ولا
يقدر على التعليم أي رجل دنس ، ولا أي
رجل مادي ، ولا الكاذب ، ولا الرقيق . .
إن الذي يعطي ، هو وحده الذي يملك ،
والذي تتحدث الروح بوساطته ، هو وحده
القادر على أن يعلّمنا . . فالشجاعة ، والورع ،
والمحبة ، والحكمة – تعلمنا . . . . »

« ويستطيع كل إنسان أن يفتح بابه لهذه

..لائكة ، ولسوف تقود إليه هبة الألسنة . . »

« أما الذي يريد أن يتكلم ، وحسب ، فإنه يهذي وخير له أن يسكت . . . . »

ومن سمات المعلم عند إمرسون ، المحاولة المستمرة للفهم والتطلع الدائب .

« إن الثبات السخيف على رأي واحد ، هو غول العقول الصغيرة . . أما الروح العظيمة ، فإنها تستنكف هذا الثبات. انطق بما تفكر فيه الآن في ألفاظ قوية وانطق غدا ، بما تفكر فيه غدا ، في ألفاظ قوية كذلك – حتى إن ناقض كل ما قلته اليوم . . وثق أنه سوف يُساء فهمك – وهل من شر الأمور أن يُساء فهمك..؟؟ لقد أسيء فهم « فيثاغورس » ، وكذلك « سقراط » و « المسيح » و « لوثر » و « كوبرنيكس » و « غاليليو » و « نيوتن » وكل روح طاهرة عاقلة . . . .

« لكي تكون عظيما ، لا بد أن يساء فهمك

« يهب الله لكل عقل الخيار بين الحقيقة
والراحة . . اختر منهما ما شئت . . ولكن
لن تظفر بكلتيهما . . إن من يختار الراحة ،
لا يشاهد الحقيقة ومن يختار الحقيقة يظل
جوَّابا ، سابحا ، بعيدا عن كل مرفأ . . . . »

« ومن أراد أن يكون رجلا ، ينبغي أن
ينشَقَّ على السائد المألوف ، ومَن يحب أن
يجمع ثمرة النخيل الخالد ، ينبغي ألا
يعوقه ما يسميه الناس خيرا - بل يجب
عليه أن يكتشف إن كان ذلك خيرا حقا . . ؟
لا شيء في النهاية مقدس ، سوى نزاهة عقلك .
حرر نفسك لنفسك ، يؤيدك العالم »

ويناهض « إمرسون » التقليد . . ويقاوم التبعية الفكرية في إصرار شديد .

« إني أنصحكم قبل كل شئ أن تسيروا
وحدكم ، وأن تسيروا إلى الله بغير وسيط .
وبغير حجاب . . . .

« اشكروا الله على هؤلاء الرجال الأخيار . .

ولكن ليقـــل كـل منكم – أنـــا كذلك إنسان – . . . . »

« إن التقليد لا يمكن أن يرتفع فوق النموذج ، والمقلد يحكم على نفسه بضعف لا رجاء فيه . . وإنه ليحرم نفسه جمالها ، كي يقترب من جمال إنسان آخر . . . . .

« عيشوا مع ميزة العقل الذي لا يحدّ. إن العلاقات بين روح الإنسان ، والروح القدس مباشِرة ؛ وحرام علينا أن نقيم بينهمـا الوساطات . . . .

« إن الله عندما يتكلم لا يتصل بشيْ واحد – إنما يتصل بجميع الأشياء . . إنه يملأ الدنيا بكلماته ، وينشر النور في الطبيعة ، والزمان ، والأرواح . . وعندئذ تختفي المعجزات الصغيرة الخاصة في زحمة المعجزة المطلقة . . انظر إلى العقول القوية ، تجد أنها لم تجرؤ بعد على الإصغاء إلى الله ذاته ، إلا إذا تكلم بألفاظ داود ، وأرميا ، وبولس ،

وغيرهم . . . .

ألا فاحيوا حياة صادقة ، تشاهدوا مثلهم
مشاهدة صادقة . . . . »

ويُصور « إمرسون » إيمانه بالله ، وبالجزاء تصويرا جميلا ، فيقول :

« إن وجود الله في كل مكان ، معناه
أن الله يُعيد ظهوره في كل ذرَّة . . كما أن
قيمةَ الكون تجاهد أن تُلقي بنفسها في
كل قطرة ، والعدالة الكاملة تقيم ميزانها
في جميع أجزاء الحياة . . والله مستعد
دائما بأحكامه . . . .

إن الدنيا تشبه جدول الضرب في الحساب ،
أو تشبه معادلة رياضية ، إذا قلبتها كيف
شئت وازنت نفسها . . كل جريمة تجد
جزاءها . . كل فضيلة تكافأ . . كل خطأ
يجازى في صمت ، وبالتأكيد. . . . .
« العين بالعين ، والسن بالسن ، وخطوة
بخطوة ، وحب بحب . . أعط تعط . .

من يَزْرِعِ يَحْصُدْ. ومن لا يعمل، لا يأكل..
وإذا طوقت عنق عبد بسلسلة، فأن طرفها
الآخر سيُطوّق عنقك لا محالة........

« ليس في الدنيا الواسعة مكان يختفي فيه
إنسان سافل.. وإن ارتكبت جرما، وجدت
الأرض كأنها مصنوعة من زجاج. إنك
تستطيع أن تقذف حجارة إلى أعلى..
ولكنها بعد لحظة، ستعود إلى الأرض..
ومهما يكن من السرقات التي لم تلق
جزاءها.. والأكاذيب التي لم يكشَف
خِبئُها، فإن العدالة لا بد أن تسود.. فمن
مزايا الحق، أنه يجعل نفسه مصدَّقا.... »

• • •

أما الصداقة، فلها في تفكير « إمرسون » وفي قلبه أفسح
مكان وأعلاه...

اسمعوه يقول:

« الصديق الجديد عندي حادث
عظيم..!! »

وهو يرى الصداقة الخالصة زينة الحياة ، ومتاع الروح . . وحين يوجد الصديق الودود ، توجد الدنيا في أصفى مباهجها ، « فلا شتاء ، ولا مساء ، ولكن ، مَن هو الصديق . . ؟

يقول « إمرسون » :

« الصديق شخص أستطيع أن أخلص له . .
وأستطيع أن أفكر أمامه بصوت مرتفع . .
إنني مع هذا الصديق أصل أخيرا إلى أعماق
رجل حقيقي يضارعني وأستطيع معه أن
أنزع عن نفسي كل ثياب الرياء . . . . »
« كذلك أستطيع أن أعامله بالبساطة والتكامل
اللذين تلتقي بهما ذرة كيمائية بذرة أخرى . . »

والصداقة عند إمرسون . ليست إفناء لشخصية الصديق ، وليست سيطرة واستعلاء من أحد الصديقين على أخيه .

« لا أحب للصديق أن يكف لحظة واحدة
عن أن يكون نفسَه . . . .
إن السرور الوحيد الذي تُفيئه عليَّ صداقته .
هو أن ما لم يكن لي . . قد أصبح لي . . . . »

إن هذه العبارة لتبلغ من الصدق مثل ما تبلغ من الجمال . .
ية الصداقة حقا ، أنها تضيف إلى رصيدنا ما يمتلكه أصدقاؤ
فضائل ومزايا . . فإذا تخلّوا عنها في سبيل تقليدنا أو إرضاء
ورنا وكبريائنا – فإننا نكون قد فقدناهم تمامًا . .

يقول إمرسون أيضا :

« خير لك أن تكون شوكة في جنب صديقك من أن تكون صَدى له . يجب أن يكون هناك اثنان أكيدان ، قبل أن يكون هناك واحد أكيد . ولتكن الصداقة تحالفا بين طبيعتين كبيرتين . ، والسبيل الوحيد لأن يكون لك صديق – هو أن تكون أنت صديقا . . . . »

• • •

وللبطولة عند إمرسون مفهوم مضيء . . فهي ألا تنفصل عن
ع في تهوُّر ، ولا تَستسلم إليه في إذعان . .

يقول إمرسون :

« سِمَة البطولة المثابرةُ . . لا تحاول أن

توفق بين نفسك والدنيا في ضعف وخ
فأعمال البطولة ، ليست أعمالا عادية
إن في نفوسنا من الضعف ما يجعلنا ؛
عطف الناس على أعمال ، كل امتيا
أنها فوق مستوى العطف . . . .

اثبت - إذن - على عملك . . وهنئ نف
إذا أديت عملا كبيرا لا يألفه الآخرون .

مع تولستوي
في شموخه

المراجع:

- اعترافات تولستوي : ترجمة الأستاذ محمود محمود
- تولستوي : تأليف : ستيفان زفايج
  ترجمة : الأستاذ فؤاد أيوب

« من أنا . . . ؟؟ جزء من اللانهائي . . ؟؟
ألا إنه في هذه الكلمات الوجيزة جدا ،
لتنحصر المشكلة بأسرها . . ! ! »

• • •

هكذا فكر « تولستوي » – العملاق الشامخ ، الذي وصفه – جوركي – بأنه « إنسان الإنسانية » ، ووصفه – زفايج – بأنه « إنسان الحقيقة » .

أما هو ، فكما قرأنا ينعت نفسه في تهكم وحيرة بأنه « جزء من اللانهائي » . .

من أنا . . . ؟

هذا السؤال الذي أقضّ مضجعَه طولُ التفكير فيه ، والذي تأزّمت بمحاولة توضيحه ، حياة العملاق .

لنستأنف الإصغاء إليه :

« أمن الجائز أن الإنسانية لم تسأل نفسها
هذا السؤال إلا منذ الأمس القريب . . ؟
وهل لم يستطع أحد قبلي أن يضعه لنفسه . . »

« لا شك أن هذا السؤال قد وجد منذ نشأ الإنسان.. ومنذ بدأ الإنسان سعيه فوق الأرض، وهو يبحث عن العلاقة بين المحدود واللامحدود............

« ومما يفزع له المرء، أننا كالأطفال: نفُكُّ أجزاء الساعة، ونجعل منها ألعوبة. ثم ندهَش بعد هذا، لأنّ الساعة لا تدور..!................

من الضروري أن نُوَفق إلى حل للتناقض القائم بين المحدود واللامحدود. وأن نُوَفَّق إلى جواب لمسألة الحياة حتى تصير الحياة ممكنة...................

إن فكرة الإله الذي ليس له نهاية، وقدسية الروح، والعلاقة بين الله والناس، وفكرة الإنسان عن الخير والشر. كل هذه، أفكار صيغت في الضمير البشري السحيق.. وهي أفكار لا يمكن لي ولا للحياة بدونها بقاء.. ومع هذا، فقد نبذت جُهد

الإنسانية بأسره وأردت أن أصوغها بنفسي ،
من جديد . . . . »

• • •

نبَذ جهد الإنسانية بأسره ، وصَوْغ المسألة من جديد . .

هذه هي محاولة تولستوي الجريئة . وهذه آية شموخه .

ومن عجب أنه يفكر على هذا النَّسق إبَّان أزمته العظيمة التي قلبت نهج حياته . .

تُرى ، هل استطاع أن يفعل ، وهل وجد الجواب ، واكتشف الحقيقة . .

في رأيي ، أنه يكفي من « تولستوي » هذا الموقف الفكري الباسل ، حتى إن ضلَّ بعده الطريق . . فكيف ، وهو يخبرنا أنه لم يضل ولم يَختَوِشْه التِّيه .

اسمعوه يقول :

« إن حياة العالم تسير وَفقا لإرادة ما ، أعني أن إرادة ما . تحقق غرضها بحياة العالم بأسره ، وبحياتنا البشرية . . . .
ولكي يرجو المرء إدراك كنْه تلك الإرادة –

عليه أولا أن يطيعها . . . .

لقد صاح من داخلي صوت يقول : عن
أي شئ تبحث بعد هذا . . هذا هو . . .
إنه الذي لا يستطيع المرء بدونه أن يعيش . .
إن معرفة الله ، والحياة شئ واحد . . أو
قُل : إن الله هو الحياة . . . . »

وينساب الفكر بين يدي « تولستوي » في وضوح وإشراق . .
فلكي يلاقي الله عليه أن يلتقي بالحياة . . فما الحياة . . ؟ ؟

« انصرفت عن الحياة التي يحياها قُرنائي ،
وأدركت أن الوفرة التي ننعم في ظلها ،
تحرمنا فهم الحياة . . . .

ليست الحياة ، هذه التي نحياها ، نحن
المتطفلين عليها . . بل هي تلك التي تحياها
الجموع العاملة الطيبة – هذه الجموع التي
تخلق الحياة ، وتجعل لها معنى . . . . »

ويتابع « تولستوي » حديثه ، فيفسر معنى الحياة تفسيرا
دينيا ، ويقول :

« كل إنسان ، أتى هذه الدنيا بإرادة الله . .

وقد أمدَّ الله الإنسان بما يستطيع معه أن يقضي على روحه ، أو أن ينجيها . . وهدف الإنسان في الحياة ، إنقاذ روحه . . . . . . »

« ولكي يفعل ، عليه أن يعيش عيشة ترضي الله . . . . »

« وسبيل هذا ، أن ينبذ الشهوات . . . وأن يعمل . . ، ويتواضع . . ، ويكون رحيما . . . . »

• • •

وهذه الكلمات تطلُّ بنا على الجانب الإيجابي في تفكير « تولستوي » وحياته . .

فالعمل ، والتواضع ، والرحمة ، والعدل السَّديد الشديد — صارت لُبَابَ فكره وسلوكه .

« لو يفهمون أخيرا أني لا أستطيع ، ولا أريد أن أعيش هكذا . . يحفُّ بي الخدم . . وتقدم لي أطايب الطعام في صحاف من الذهب . . بينما الآخرون لا يجدون ما هو

ضروري ليعيشوا . . . ؟؟ ! ! إنهم ليعرفون جميعًا أني لا أسألهم سوى هذه التضحية . . هذه التضحية الوحيدة . . أن يتنازلوا عن هذا البذخ . . هذه الخطيئة ضد المساواة . . المساواة التي يريد الله أن تحكم البشر جميعًا ».

ويتعذب « تولستوي » بأفكاره البارّة هذه ، أنبل عذاب .

« هذا إذن ما يجري على أرضي . . كلا — بل على الأرض التي أعطيتها لزوجتي وأبنائي . ولكن لماذا أخفي ذنبي وخطيئتي وراء زوجتي . . ؟؟ إن نقل أملاكي إليهم لم يكن إلا مهزلة وخدعة . . ومثلما تغذيت أنا بدماء الفلاحين ، فإن أهلي الآن يمتصون دماءهم ، ويذرونهم في بؤس قاتل . . إني أعرف هذا تماما . . . .

إن كل حجر استعمل في بناء هذا القصر الذي أسكنه ، قد عُجِن بعرَق العبيد . . . . .

«كيف إذن أعطيت زوجتي وأولادي ما ليس لي بحق . . . أرض أولئك الفلاحين

الذين يزرعونها ويشقون فيها . . ؟ يجب أن
أخجل أمام الذي أُبَشّر باسمه . . . . »
« إني أُبَشِّر – أنا ليون تولستوي – بالعدالة ؛
بينما أتفرج من نافذتي على مشاهد البؤس
والظلم الذي يحلّ بالآخرين . . ! ! . . . . »

ثم يصرخ المارد الرحيم صرخة مفكرة ملؤها الاحتجاج على
احتكار الحياة .

« أواه . . . ما أصعب أن يتخلص الإنسان
من هذه الملكية – المحتكرة – القذرة المجرمة .
إن الملكية – المحتكرة – اليوم أساس كل شرّ .
وإنما تتآمر الدول وتتقاتل ، لأن كلا منها
ينشد الملك . . . .
فتراها تحارب على ضفاف الرين . ، وفي
أفريقيا . ، وفي الصين . ، وفي البلقان . ،
« إن أصحاب المصانع ، ومُلاّك الأراضي ،
إنما يعملون ويُدبرون للملكية – المحتكرة –
وحدها ؛ والموظفون يتقاتلون ويغشون ،

ويظلمون ، ويألمون من أجل الملكية
– المحتكرة – وحدها. إن العقوبة والسجون ،
إنما تقوم لحماية الملكية – المحتكرة –
دون سواها . . . . »

• • •

ويتّسق تفكير تولستوي مع نفسه اتّساقا فذا فيتحدث عن الحرب قائلا :

« إن الحروب التي تشنها الدولة – تفسد
الناس في عام واحد أكثر مما تفسدهم ملايين
جرائم النهب والقتل التي يرتكبها الأفراد
في مئات السنين . . . . »

إن كلماته الذكية هذه تذكرنا بالشاعر العربي الذي قال :

قتل امرئ في غابة جريمة لا تغتفر
وقتل شعب كامل مسألة فيها نظر

• • •

وللوسائل في تفكير « تولستوي » قداسة الغايات نفسها . .
فليس يكفي عنده أن تكون أهدافك بارة وعادلة ومستقيمة . .

بل لا بد أن تكون وسائلك كذلك .

انظروا . .

« ليس الكمال الأخلاقي الذي يبلغه المرء ،
هو الذي يهمنا . . بل الطريقة التي يبلغه بها . »

وفي وضوح شامخ ، يقول أيضًا :

« أيسر على المرء أن يكتب في الفلسفة
مجلدات عدة . . من أن يضع مبدأ واحدا في
حيز التطبيق . . . . »

• • •

فإذا ما تحدث إلينا « تولستوي » عن الفن . والفكر فما أبهى ، وما أروع كلماته . .

إنه بهاء الصدق ، وروعة الشجاعة . .

فهو يتحدث عن الفنان والأديب من خلال تجربته العميقة العريقة الشاهقة . . تجربته التي كشف كل خباياها . وخفاياها .

وسوف أختار من حديثه الشهيّ هذا . وفكره المضيء ذاك . . كلمات تحدث بها عن الفن إبّان أزمته العظمى .

هنالك نرى مبلغ ولائه وتقديره له :

«كيف أمكنني أن أهين الفن ، وأحتقره . .
وهل يستطيع الإنسان أن يجد العزاء إلا في
الفن . . ؟ وهل نستطيع أن نحس بكل
وضوح ، حضور الله ، إلا في صورة الفنان ،
وكلمته . . ؟ . . . .

«إيه يا بتهوفن . ، ويا شوبان . . ؟ ؟
إنكما أخواي اصفحا عني لأني أسأت إليكما»

إن ضميره الفني ليُدوِّي ، وهو في صومعته .

والذي يقول هذا القول الآن ، ليس هو « تولستوي » الكاتب والفنان فحسب . . بل والناسك أيضاً .

ولست أعرف تتويجا للفن ، وللأدب أبهى من هذه العبارة . . في هذه المناسبة . . من ذلك الرجل . . .

ومن خلال تجربته كذلك ، يرسم لوحة سريعة لكنها كاملة للفنان الصادق الأصيل .

« يا ربي . . كم كنت أسير فيما مضى بثبات
ويقين ، عندما كنت أكتب مؤلفات أدبية
وأقدم الحياة إلى الناس ، كما جعلها الله أمام

أعيننا . . أنا لست إلا رجلا قد وهبه الله – كي
يرى الكون الذي خلقه – عينين أكثر استنارة .
ولربما كنت يومئذ ، عندما كنت لا أفعل
سوى خدمة الفن ، أصدق وأفضل مني
الآن ، وأنا أذم الفن بصورة غير معقولة . . »

ثم يصيح في هُيام داهم . .

« إن الله قد دعاني كي أصف عالمَه . .
ألا ما أروع الفن . . وما أشد طهارة الإبداع
الفني . . . . »

والفن ، والأدب عند « تولستوي » ليسا هواية ومُتْعة . . بل واجبا وتَبِعَة .

بل هما أكثر من واجب . .

إنهما بالنسبة للفنان الصادق ، والكاتب الصادق تكليف من الله . ودعوة منه سبحانه موجهة إلى كل من الكاتب والفنان لكي « يصف عالمه » . .

من أجل هذا عاش حياته الملأى يبحث كما يقول « عن الإيمان ، وعن قوة الحياة » .

وذات يوم . . رحل تولستوي في هدوء . آخذا سبيله إلى الرفيق الأعلى .

ذهب ، واستراح من أكثر هموم الأرض ومضايقاتها – ألا وهو تمجيد الناس له .

« هكذا يمثلونني – أنا تولستوي الكريم ،
نصير الفلاحين . . المحسن النبيل ، الذي
يمد يد المعونة للجميع ولكنهم لو استطاعوا
أن يطالعوا خبء نفسي لعلموا أني لم أكن قط
طيبًا . . ! ! ولعَلِموا أني لم أكن محسنا
في يوم من الأيام ؛ لأني لم أعط الفقراء
طوال حياتي نصف ما كنت أخسره على
مائدة القمار بموسكو في ليلة واحدة . . ! !
نعم . . فأنا الذي لم يخطر لي على بال ، أن
أرسل إلى « دستويفسكي » الذي يشكو
الجوع فيما أعلم ، المائتي « روبل » التي
كانت تنقذه من مجاعته . . ومع هذا ،
فالناس يمجدونني ، ويحتفون بي ، كما لو
كنت أكثر البشر نُبلا . . . . »

« بينما أعلم حق العلم أني لا أزال في بداية البداية . . . . »

* * *

كل كتب تولستوي الشامخة . .

وكل سلوكه القوي الطاهر . .

كل هذا . . لا يمثل في رأيه سوى « بداية البداية » . ؟ ! !

* * *

وبعد . . .

فلْتطْوَ صفحات هذا الكتاب هنا . .

عند « بداية البداية » . . . ! !

كتب المؤلف

١- من هنا . . نبدأ .

٢- مواطنون . . لا رعايا .

٣- الديمقراطية ، أبداً . .

٤- الدين للشعب .

٥- هذا . . أو الطوفان .

٦- لكي لا تحرثوا في البحر .

٧- لله ، والحرية (ثلاثة أجزاء)

٨- معاً على الطريق محمد والمسيح

٩- إنه الإنسان .

١٠- أفكار في القمة .

١١- نحن البشر .

١٢- إنسانيات محمد .

١٣- الوصايا العشر .

١٤- بين يدي عمر .

١٥- في البدء كان الكلمة .

١٦- كما تحدث القرآن .

١٧- وجاء أبو بكر .

١٨- مع الضمير الإنساني في مسيره ومصيره .

١٩- كما تحدث الرسول (مجلد) .

٢٠- أزمة الحرية في عالمنا .

٢١- رجال حول الرسول (مجلد) .

٢٢- في رحاب علي .

٢٣- وداعاً .. عثمان .

٢٤- أبناء الرسول في كربلاء .

٢٥- معجزة الإسلام عمر بن عبد العزيز

٢٦- عشرة أيام في حياة الرسول .

٢٧- . . والموعد الله .

٢٨- خلفاء الرسول (مجلد) .

٢٩- الدولة في الإسلام .

٣٠- دفاع عن الديمقراطية .

٣١- قصتي مع الحياة .

٣٢- لو شهدت حوارهم لقلت . .

٣٣- إلى كلمة سواء (تحت الطبع)

٣٤- الإسلام ينادي البشر (تحت الطبع)

تطلب كتب المؤلف من دار المقطم للنشر والتوزيع

رقم الإيداع ٧٩٨٦ / ٩٤

أفكار في القمة

فاصلة

* لستُ في هذا الكتاب مؤلِّفاً ، إنما أنا قارىء .. ومع الفكر الإنساني في شتى آفاقه سنُمضي معاً وقتاً طيباً مباركاً فيه .

* وهذه المختارات التي طالعتُها - بين ما طالعتُ - عزيزةٌ عليّ ، أثيرة لديّ .

* ومن أجْل هذا أحببتُ أن تشاركوني متعتها والانتفاع بها .

* وهي قليل من كثير ، مما تركه لنا الفكر الإنساني العظيم .

خالد محمد خالد

المقطم للنشر والتوزيع

٥٠ ش الشيخ ريحان - عابدين - القاهرة